

كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

نحو مشروع حضاري للإسلام

د. أحمـد القـديـدي

ربيع الأول ١٤١٧هـ ـ العـدد ١٧١ السنة الخامسة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

نحمده سبحانه وتعالى ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، ودائما ياربنا نصلي ونسلم على صفوتك من خلقك وخاتم رسلك سيدنا محمد، النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه وعمل بسنته إلى يوم الدين.

وبعد:

(لقد جئنا الي مصر قبل الأوان)

هذا الجملة التي اتخذناها عنوانا، تمتم بها أحد الخبراء، الاستراتيجية الذين صحبوا الحملة الفرنسية على الشرق[1]، قال هذه الجملة في أسى وحسرة، وهو يرى جيش فرنسا الذي لا يقهر، يخرج من مصر مذموما مدحورا، مهزوما ممزقا، بعد ثلاث سنوات، لم تستقر له فيها قدم، ولم يغمض له فيها جفن، ولم يغن عنه شيئا، فتى أوروبا، وسفاحها، وفخر فرنسا، وعبقريتها الحربية، (نابليون بونابرت)، ولم يغن عنه عدته وعتاده، فقد استعصمت البلاد بدينها، واحتمت بإيمانها، ولم

---

(١) هذا هو الإسم الحقيقي في ملفات وزارة الحربية الفرنسية، ولكنهم زيفوا علينا، وسموها: «الحملة الفرنسية على مصر» حتي لا يبوء بهمها، ولا يغضب لها إلا مصر.

تخدع بالاعيب عدوها، فعندما ألقى الشيخ الشرقاوي (الوشاح الاكبر) الذي أنعم به نابلبون عليه، «فامتقع[1] وجه الشيخ، وتغير مزاجه، وألقى الوشاح على الأرض، بعد أن وضعه (نابليون) بيده على صدره قال المترجم: يامشايخ: أنتم صرتم أصدقاء (نابليون) العظيم، وهذا الوشاح، يفتخر به ملوك أوروبا وقادتها، ونابليون يريد أن يرفع بهذا قدركم» فقال الشيخ الشرقاوي: «لكن بهذا يضيع قدرنا عند الله وعند الناس».

في هذه اللحظة التي ألقى فيها الشيخ الشرقاوي الوشاح «أعلى أوسمة فرنسا» على الأرض، كانت المعركة قد حسمت، وعرفت نتيجتها، فهي المفاصلة إذا، بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، فمساومة العدوّ انكسار، ومفاوضته اندحار، والتحلي بأوسمته عارٌ أيّ عار.

لم تقع الأمة بعد في متاهة هذه المصطلحات الحديثة: (الممكن) (الواقع) (العقلانية) (الحوار) (المصالح) (المتغيرات) (التبادل الحضاري) (الانفتاح)... إلى آخر هذه المخدرات السامة.

نعم. لم تكن الأمة قد وقعت في هذا المستنقع، ولم تكن قد شربت من هذا المسكر، فعرفت طريقها، الذي لم يكن لها طريق سواه «إحدى الحسنيين، الجنة، أو النصر».

لذلك كان هذا الجنرال الخبير صادقا كل الصدق في تعليل فشل هذه الحملة العسكرية، التي كانت من العدة والعتاد بحيث

---

(١) هذه عبارات الجبرتي بنصها.

لا تقهر. «إننا جئنا إلى مصر قبل الأوان».

كان الغرب قد تعلم، ووعى الدرس جيدا: أنه لا يمكن أن يخترق ديار الإسلام، مهما آنس من نفسه القوة، ومهما رأى المسلمين في ضعف، وتفرق وتمزق، وكان آخر الدروس وأبلغها، الحروب الصليبية، حينما جاءت جحافل الغرب بقضّها وقضيضها، رجالها وأطفالها، رهبانها وملوكها، موجة إثر موجة، وعلى طول قرنين من الزمان، تتكسر هذه الموجات الصليبية على شواطئ عالم الاسلام، وهي حائرة لا تدري من أين تخترق هذا الصرح الاسلامي، الذي رأوه ضعيفا ممزقا، بل متناحرا متقاتلا، آنا حاولوا اختراقه من الشام، وآنا من مصر، وآنا من المغرب الإسلامي، من تونس الخضراء.. وأخيرا باءوا بالفشل. وفي مجمع فينار عقب رجوعهم بالخيبة من الحروب الصليبية - تأكد لهم بعد طول الدراسة والمباحثة، صحة ما اقترحه عليهم رئيس الكنيسة (ريمند لول) (ويسمى رومان لال أيضا) إذ أكد لهم «استحالة هزيمة المسلمين بالقتال والسلاح، وإنما لابد من وسيلة جديدة، وهي إرسال المستشرقين والمنصرين، بدلا من الجيوش والجنود».

وبتأثير (ريمند) هدا جرت الحروب الصليبية في مجرى جديد، ولذا ظلت الصليبية نحو أربعة قرون، تحاول أن تستكشف هذا العالم الإسلامي، وتحكم شد الأنشوطة حوله على حدّ تعبير المؤرخ الكبير أرنولد توينبي، ظلت جنود الصليبية تتسرب إلى جسد هذا العالم الإسلامي، كالجراثيم

الفتاكة، في زي تجار يطلبون الربح، وطلاب علم يظهرون التعليم، ورحالة يبحثون عن المعرفة والمتعة، ورجال دين يطلبون التعرف والحوار، وعلماء بالمشرقيات (مستشرقين)، وماسمي بالكشوف الجغرافية، بل ومدعين للإسلام، حتى إذا بدا لهم أنهم قد احكموا الطوق، أو الأنشوطة، يقول توينبي أيضا: «غامروا بشدها في مطلع القرن التاسع عشر» يعني بذلك حملة نابليون، ولكن يبدو أنهم تعجلوا، فخرجوا مدحورين، وخبيرهم يقول في حسرة وأسى: «جئنا إلى مصر قبل الأوان».

وهانحن الآن عرفنا أي أوان يقصده هذا لجنرال الخبير، لم يكن الغزو من الداخل قد فعل فعله بعد، فلم تكن الثمرة قد نضجت، ألقى الشيخ الشرقاوي الوشاح الفرنسي على الأرض، ورفضت الأمة منشورات نابليون، وألاعيبه، وادعاءه الإسلام. . وكان ماكان.

ولكنهم لم يناموا:

بدأ المسيو (جومار) المسؤول عن المبعوثين المصريين في باريس، وكلوت بك استاذ الطب الفرنسي المشرف على التعليم في عهد محمد علي وخلفائه، هو (وارتين بك)، (ولا يببير بك)، (وهامون بك) واضرابهم، كان هؤلاء هم الذين أعدوا مصر وهيئوها على نحو ما أراد (ريمندلال) ولم يستغرق ذلك أكثر من سبعين سنة، جاءت بعدها الحملة الإنجليزية (تنازلت فرنسا لإنجلترا عن مصر، مقابل سبقها إلى الجزائر)، وقد آن الأوان، فوجدت الحملة مصر قد آن أوانها، وسقطت في يد

الإنجليز، بدون مقاومة تذكر، بل بخيانة بعض أبنائها، الذين عمل فيهم مبدأ (ريمندلال)، وجهود (جومار) وأعوانه. مما يحتاج تفصيله إلى كتب ودراسات.

ومبدأ (ريمندلال) هذا، كان سنة متبعة، ودستورا معمولا به في جميع أنحاء دار الإسلام، يقول الفيلسوف سارتر، مصورا هذا الدور، وأثره وخطره «كنا نأخذ الصفوة من أبناء آسيا وإفريقية إلى عواصمنا، ليعتادوا عاداتنا، ويعيشوا عيشتنا، ويعشقوا موسيقانا، ونحفر على جباههم بالحديد الأحمر مبادئ الثقافة، ونحشو أفواههم بكلمات رنانة، وجمل ضخمة تلتصق بأسنانهم، فلا يحسنون الكلام إلا بها، ثم نردهم إلى بلادهم، فيتكلمون نيابة عنا، والأهم من ذلك أنهم يمنعون غيرهم من الكلام» أ. هـ.

بهذا النوع من التخريب الثقافي، والتدمير الفكري، الذي مارسه الغرب طول هذه القرون، بهذه الضراوة، وبهذا الدهاء، بهذا الغزو كان مانراه اليوم بأم أعيننا من اختراق كامل، واجتياح كاسح لكل دار الإسلام - ومن عجب بغير سلاح.

وإن هذه الجولة من جولات الصراع ما لم تعرف حقائقها، وتدرس أبعادها وأسرارها، لن نبرأ أبدا من دائها، فمن البديهي أنه ما لم نعرف ماكان كيف كان، فلن نستطيع أن نتقيه، لا أن نعالج آثاره.

الدكتور أحمد القديدي . . أين هو من ذلك كله؟

عرفنا الدكتور القديدي من سنوات عن طريق مقاله

الأسبوعي في جريدة الشرق القطرية، فرأيناه أحد المرابطين في هذا الموقع الفكري المستباح، وأحد المدافعين عن حصننا الثقافي المهدد من داخله، ثم التقينا به وتوثقت صلتنا، وطال الحديث والحوار، فرأينا روحا شفافة، صافية، هادئة، رقيقة، ولكن لا تخطئ العين ماخلفها من ثورة مكتومة، وهم دفين، فهو أحد حملة هموم هذه الأمة تلمح في عينيه وقسمات وجهه آثار هذا الهم، وتدركه في نبرات صوته، وفي مرامي كلامه، ومجري حديثه، وقد غطى هذا الهم على همومه الخاصة، فهو واحد من الذين أوذوا في سبيل الله، وأخرجوا من ديارهم بغير ذنب، إلا أن يقولوا ربنا الله، وهو لا يذكر هذا لأحد، ويراه قليلا في جنب الله، ويحتسبه صابرا.

والدكتور أحمد القديدي - يعد - واحدا من الذين استعصوا على ذرائع المسخ والتشويه، فقد تعرض مثل جيله لعملية التفريغ الثقافي في نشأته الأولى، ثم في دراسته وإقامته في الغرب، ولكنه استعلى بدينه، واعتصم بقرآنه، بل أفاد من اطلاعه على علوم الغرب وثقافته وإقامته هناك كثيرا، فقد عرف أين تكمن مواقع القوة ومواقع الاستفادة ومواقع الحوار، فجاءت كتاباته، ومحاضراته، وكلماته عنْ خبرة ووعي، وعن علم وصدق، وعن إيمان بالحوار المتكافئ مع الغرب وحضارته من موقف الند للند.

قدم للمكتبة العربية كتابه **(الإسلام وصراع الحضارات)**، في سلسلة كتاب الأمة، فكان مشاركة جيدة في ترشيد الصحوة

الإسلامية، بتحديد موقعنا في هذا الصراع، والدور الذي تنتظره الإنسانية منّا، وكيف نقوم به.

وكتابه هذا الذي بين يدي القارئ إضافة جديدة إلى جهده وجهاده، في سبيل الدفاع عن حصوننا الثقافية، التي استباحتها الثقافة المغشوشة المزيفة، على يد نفر من أبناء جلدتنا، وقعوا صرعى مدرسة (جومار) فعادوا ينادوننا، ويبشرون فينا بالنموذج الغربي، قائلين: (إما النموذج الغربي بما فيه، وإما التخلف والسقوط).

كتاب الدكتور القديدي صفحة مشرقة في ثقافة الانعتاق، وتحذير صادق من ثقافة الالتحاق.

أقرأ له في هذا الكتاب: «يقولون ونقول» تجد الحق واضحا أبلج، ولكن أجهزة وأقلاما، وأبواقا من خطاب الالتحاق تفتن الأمة عن حقيقتها، وتضلها عن سبيلها.

وأخلى الآن بين القارئين الكرام وكتاب الدكتور القديدي.

والله الكريم أسأل أن ينفع به كاتبه، وقارئه، وناشره، وأن يتقبل منا جميعا، ويقبلنا في الصادقين المخلصين.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

د. عبد العظيم محمود الديب

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال جل من قائل: ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠].

فكرت في أن أكتب هذا الكتاب عن مشروع حضاري للإسلام كنت أعيش في فرنسا بعيدا عن أوطان المسلمين وفي زمن متشعب صعب كنا نرى فيه يوميا استحكام المستكبرين في رقاب العالمين بوسائل الإعلام العملاقة وبالمساومات الاقتصادية الجائرة وبتدليس المصطلحات المتداولة واعتقدت جازما مع من اعتقد من المسلمين أننا بإزاء عملية حضارية متكاملة لا تستهدف مصالحنا فقط؛ بل غايتها إجهاض مشروع حضاري إسلامي أخذ في الظهور والتنامي هنا وهناك عبر المظالم التاريخية الكبرى في فلسطين والبوسنة والشيشان وأجزاء أخرى من أوطان العرب.

وأيقنت أن مشروع **(الشرق أوسطية)** إنما هو مشروع حضاري وليس - كما يدعي بعضهم - مشروعا تجاريا أو سوقا استهلاكية. صحيح أن القصد السريع القريب هو ايجاد سوق لترويج البضاعة ولكن الأصح هو أن القصد البعيد الحاسم

يتمثل في إجهاض المشروع الحضاري الإسلامي القائم على مثل التسامح والسلام والعدل وتعويضه بمشروع حضاري يعتمد ثقافة الاستكبار ويخدم مصالح الاستكبار .

وإن المحلل لعبارة حضارة في لغة العرب يجد أنها اشتقت من (ح ض ر) أي سكن الأمصار وهي عكس البداوة حسب لسان العرب . ونحن حيث نستعمل عبارة الحضارة إنما نطهرها من هذه الأدران الاصطلاحية التي لحقت بها عبر القرون والتي جعلتها ضد البداوة وفضائلها العليا وشمائلها الأخلاقية . فأصل الحضارة عندنا نحن المسلمين مستلهم من بداوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وأصحابه الميامين رضي الله عنهم وأرضاه (والتي تعنى مكارم الاخلاق والنقاء والطهر) . وان أعمق ماكتب في معنى الحضارة على لسان عبدالرحمن بن خلدون الذي حلل مفهومها في مقدمته قائلا عنها إنها «غاية العمران» وأنها تتصل بالتفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه .

وللعبارة مايقابلها أو يجانبها في لغات العالم ومنها مصطلحات تدل على الثقافة أو المدنية ولكن الاستعمال الحديث في سائر اللغات - ومنها العربية - كرس مصطلح الحضارة وغلبة على باقي المصطلحات لأن العلوم الإنسانية من تاريخ وعلم اجتماع وقانون وعلوم سياسية وإعلام تخلت جميعها عبر نصف القرن الماضي عن العبارات الأخرى

واحتفظت بمصطلح الحضارة لتشير الى خصوصية كل أمة من الأمم وتميزها عن سواها بعاداتها وثقافاتها وسلوكياتها وردود أفعالها وخلاصة تجاربها وتنظيماتها **(أي أن الحضارة أصبحت تعني المحصول الروحي والفكري والاجتماعي لأمة من الأمم ومخزونها التاريخي وتصورها لمصيرها في آن واحد)**.

وقد عزمت بعد التوكل على الله تعالى لأرسم بعض الخطوط لمشروع حضاري إسلامي يمكن أن يتولاه الجيل المسلم الجديد بمزيد الدراسة والتمحيص خاصة ونحن نعيش في عالم تميزه تكتلات تعتمد وحدة العرق أو وحدة المصالح أو وحدة الطغيان. وكان من الضروري والطبيعي أن أضع هذا المشروع الحضاري الإسلامي بإزاء المشروع الغربي المسيحي اليهودي لأنه المشروع الأقرب منها تاريخيا والألصق بنا جغرافيا وهو الوحيد الذي ربط بقاءه وقوته وهيمنته بمدى إضعافنا وزعزعة ثوابتنا وتفريق صفوفنا.

ولذلك كان الكتاب الذي بين يديك عملية مقارنة مع التمسك ببيان الحق وانتهاج سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ما استطعته فعساني بلغت بعضا من رسالة الفكر وعساني استنهضت بعضا من الهمم واستنفرت بعضا من الضمائر.

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

د. أحمد القديدي

الفصل الأول

الإسلام والكسر الحاصل في مسار التاريخ

- ويشتمل على :
- العقيدة قبل الحصن
- وتعطل المد العظيم
- جحافل المغول
- هذا العصر المدوّخ
- ثورة الذاكرة
- لا شرقية ولا غربية
- وجودنا في الميزان

الإسلام والكسر الحاصل في مسار التاريخ

لقائل أن يقول: لماذا نطرح اليوم قضية العلاقات التاريخية بين الإسلام والغرب ومن المنظور الثقافي والحضاري والإعلامي بالذات؟ ونحن نحاول رسم مشروع حضاري للإسلام.

لماذا؟ أما كان أحرى أن نتصدى لهذه العلاقات من الزاوية الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية، مادمنا نعيش عصرا شهد ثورات عارمة وجذرية في العلوم الصميمة واستكشاف الفضاء الرحب وهتك أسرار الأرض وسبر أعماقها، ثم إن هذا العصر العاصف وصل الى كنه النفس البشرية فجورا وتقوى وإلى كهوف الجسم البشري تطلعا وتصويرا وتشخيصا.

وهو كذلك عصر سيادة الأقمار الصناعية تطوف حوالينا لتحدث ثورتها العارمة في الاتصالات بين الإنسان والإنسان، وبين القارة والقارة، وبين الأرض والكواكب.

إن هذا التساؤل مشروع؛ نعم: لماذا نوجه هذا الكتاب وجهة الجانب الفكري من صراع الألف سنة بين الإسلام والغرب، بينما العصر عصر مادة، الغلبة فيه للأقوى ماديا وعسكريا وتكنولوجيا والهزيمة فيه من نصيب الأضعف؟

العقيدة قبل الحصن

ولكن...

ولكن الأمر جلل وخطير لأنه يتعلق بكياننا العربي الإسلامي

حيث أكدت دروس التاريخ البعيد منذ فجر الفتوحات الإسلامية أنه كلما أراد غاز من الغزاة ضرب صرح الإسلام وتقويض كبريائه إلا وتسلل إلى حصوننا عبر الثقافة والفكر. ولم يكن السيف لديه إلا لاحقا للقلم وتابعا للداعية والراهب والقس والكتاب والصورة.

إن قلاعنا الاقتصادية والسياسية والعسكرية لم تؤخذ بحد السيف دائما، بل أخذت وانتهكت بحد القلم.

إنهم تسللوا إلينا عبر الضمائر الهشة والنفوس المغلوبة والقلوب الخالية من الإيمان. لقد دكوا منا العقول قبل دك الصروح.

ولم ننتصر كعرب مسلمين فاتحين إلا عندما سلحنا العقول وأسسنا النفوس وشيدنا قلاع الفقه والفكر قبل إقامة حصون الطين والحجارة.

تعلمون أن أعداءنا أول ماقاومونا، استهدفوا منا العقيدة الإسلامية قبل الحصن، وقاوموا لغتنا العربية قبل السور وشككوا في رسالتنا التاريخية قبل أن ينفذوا إلى ثرواتنا وينهبوا أراضينا.

إن شر السبي أن تسبى منا الأرواح، وشر النخاسة أن تباع منا الضمائر في المزاد العلني مهما شعرنا بحرية الأبدان تسعى في الأسواق، وشر المقابر ما ازدحمت بالأحياء المتحركين.

وتعطل المدّ العظيم

يالها من عبر التاريخ. حقيقة ثابتة دائمة متكررة مع اختلاف الأحقاب وتباين الوسائل. بدأت الفتنة الكبرى عربية عربية -

إسلامية إسلامية. فانتعشت ممالك الروم والفرس بعد أن اقترب الإسلام من هديها للدين الحنيف في امتداده العظيم. تأجل انتصار الإسلام إلى حين وانفجر قلب القيادة الإسلامية بين علي ومعاوية رضي الله عنهما؛ ثم حل الصراع بين عبد الملك بن مروان وعبدالله بن الزبير، مما أضطر هذا الأخير إلى مهادنة ملك الروم ودفع له جزية قدرها دينار كل اسبوع.

وشهدت الدولة العباسية صراعا بين الأمين والمأمون ثم بلغت الامبواطورية الإسلامية المغرب البربري المسيحي فهدت أمته للإسلام لكنها تعثرت في اختراق الصحرا نحو أفريقيا السوداء واختراق البحر المتوسط نحو أوربا - ماعدا الأندلس - بسبب تشرذم القيادة وضعف الزعامة حتى سقطت غرناطة وكان ماكان في الأندلس مما تعرفون - سقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ أي أننا عشنا منذ بضعة سنوات الذكرى الخمسمائة لفقدان منارة الفكر الإسلامي وقيام محاكم التفتيش المسيحية الرهيبة. خمسمائة عام تفصلنا عن آخر حلقة من حلقات المد المبارك في الإسلام **وقيام الارهاب الديني المعادي للإسلام من طرف أوربا المسيحية.**

جحافل المغول

ولكن قبل ذلك!

يا لها من انكسارات متتالية وانتصارات متلاحقة.

بلغت بغداد عزة المجد الفكري والثقافي والاقتصادي و... حتي «التكنولوجي» نعم بمفهوم ذلك العصر (تذكروا

قصة إهداء هارون الرشيد الساعة العجيبة لإمبواطور فرنسا شارلمان، الذي ما إن رآها حتى دعا الكهنة الذين أفتوا بأنها سحر مبين. . .) بلغت بغداد شأوا بعيدا من العزة والسؤدد، حتى رحلت جحافل المغول من سباسب آسيا (أي من المفازات البعيدة من آسيا) فانتهكوا بغداد بقيادة هولاكوا ودخلوها مخربين سنة ١٢٥٨م وقتلوا آخر الخلفاء أبا أحمد عبد الله المستعصم بالله وأحرقوا مكتبة بغداد الشهيرة التي كانت تجمع ثراث المسلمين، إيذانا بانقراض الفكر المسلم ومعالمه النيرة.

جرى ذلك بعد إحباط المسلمين للحملات الصليبية الثانية ودحر الجيوش الغازية على اثر قرنين (الثاني عشر والثالث عشر) من الصراع بين الإسلام والغرب، بدأ عام ١٠٩٥م عندما نادى البابا يوربان الثاني شعوب أوربا لتقاتل المسلمين في الشرق بحجة إنقاذ أكفان السيد المسيح عليه السلام من أيديهم في بيت المقدس. وانتهى الصراع فعليا عند موت ملك فرنسا قائد الصليبيين في قرطاج بتونس عام ١٢٧٠ مريضا بداء الطاعون المنتشر في جيشه أو صريع معركة دارت بينه وبين المجاهدين التونسيين الذين خرجوا للقائهم حماية للإسلام في معركة الهضبة السعيدية التي استعرضها شيخ المؤرخين التونسيين حسن حسني عبد الوهاب. لا نعلم اليوم لموت من كان يسمى بالقديس لويس (لويس التاسع) سببا محددا، فالتاريخ الفرنسي ينقل رواية المؤرخ (جوانفيل) الذي رافقه في حملته الأخيرة تلك، وهي أن ملك فرنسا مات بوباء الطاعون، ولكن المؤرخين بالمغرب العربي ينقلون إلينا أخبار خروج

جيش عربي مسلم من القيروان لصد ملك الصليبيين. وماتزال قبور شهدائهم معروفة الى اليوم.

إن هذه التوطأة مجرد تذكير بأن المدخل لإصابة الأمة في كيانها كان دائما المدخل الحضاري. وماكان أصدق رأي العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي انبعث من رحم هذه الأمة ليحلل في القرن الرابع عشر وعبر مقدمته الشهيرة ماهية الغزو الثقافي حين تحدث عن الأمم الغالبة والأمم المغلوبة، لا الغلبة العسكرية بل الغلبة الحضارية، أي ماسماه عبد الرحمن ابن خلدون ذوبان المغلوب في تقاليد الغالب ولغته وسائر شؤون مأكله وملبسه وعاداته.

هذا العصر المدوَّخ!

أما السبب الثاني لوضعنا قضية الصراع بين الإسلام والغرب في إطار الثقافة والفكر - يضاف إليها اليوم جانب الإعلام والإتصال - فهو يتعلق بطبيعة هذا العصر الراهن الذي نحياه.

عصر الكسر الحاصل في خط التاريخ!

لنتأمل هذا العصر المدوِّخ بتهافت الأحداث العاصفة وتلاحق الهزات السياسية حتى إنَّ مايقع اليوم أمام أعيننا لو تكهن به أحد لنا منذ خمس سنوات فقط لاتخذناه هزءا ولاتهمناه بالجنون.

فكيف حصل هذا الكسر في خط التاريخ الذي عهدناه مستقيما لا يأتيه العوج من أمامه ولا من خلفه؟ولو أوجزنا

الجواب لقلنا :

١ - لم يعد هناك لا شرق ولا غرب .

٢ - الاتحاد السوفيتي كان إمبراطورية وانفلق كالحب والنوى .

٣ - لم يعد يوجد ماكان يسمى بالعالم الثالث . وقد لقب رجل الاقتصاد الفرنسي (الفريد سوفي) البلدان المتخلفة أو النامية باسم العالم الثالث ، نظرا إلى أن هناك عالما أول هو الغرب وعالما ثانيا هوالشرق الشيوعي . فإذا بالترتيب يلغى من أساسه ؛ لم يعد هناك عالم ثالث لأنه بكل بساطة لم يعد هناك لا عالم أول ولا عالم ثان .

الاتحاد السوفيتي انشطر إلى جمهورياته ، بعد أن وحدها بالقوة والقهر حكام الشيوعية منذ ٧٤ سنة .

جاء رجل واحد ذكي منذ سنوات قليلة مضت وتبعه رجل ثان ، ميخائيل غورباتشاف وبوريس يلتسين . اكتشفا أن الهرم الذي يبدو للعيان قائما عتيدا راسخا ليس في الحقيقة سوى هرم من طوب ، لا أساس له من القوة الشعبية الناتجة عن إرادة الشعوب باختيارها .

اكتشف الرجلان أن الهرم كان متماسكا بقهر (الك ج ب) وسجون الغولاغ ومحتشدات سيبريا ، وأنه إذا انتفى القهر انهد البنيان وتداعى ؛ تناثرت أشلاء الجمهوريات وخرج ملايين المواطنين منادين بعودة الذاكرة ؛ هذه هي ميزة الزلزال الذي عصف بالاتحاد السوفيتي وبلدان أوربا الشرقية :

الذاكرة هي الشعار المرفوع في موسكو وبراغ وصوفيا وتيرانا وفرسوفيا :

تذكرت مدينة لينين غراد أنها كانت قبل سبعين عاما تسمى سان بيترسبرغ ، وتذكرت موسكو أن ابنها الكسندر سلجنتسين الحائز على جائزة نوبل للآداب يعيش في المنفى بأمريكا محروما من جنسيته كما حرمت بلاده من أدبه وفكره .

تذكرت سهول أوكرانيا أن ابنها الموسيقار رستروبوفتش يعيش منفيا في أوربا محكوما بالإبعاد .

وتذكر كذلك المسلمون السوفيات أن تاريخهم حافل بأبطال ثوار سبق أن رفعوا مصاحفهم إلى جانب بنادقهم في مقاومة الثورة البلشفية ، وقبلها في مقاومة ظلم القياصرة .

تذكر المسلمون البطل سلطان غالياف والبطل شاميل الذي كان يلقب بأسد داغستان .

تذكروا أن الإسلام مايزال حيا خالدا ملتهبا كالجمر تحت رماد الإلحاد الرسمي واضطهاد الإيمان تحت شعار صهر الشعوب في بوتقة الجدلية المادية .

عادت المساجد في الاتحاد السوفييتي - اتحاد الجمهوريات المستقلة اليوم - توقد مآذنها ويدعى فيها للصلاة وعجّت فناءاتها بالمصلين .

وتذكر العالم المصاب بفقدان الذاكرة أن الإسلام حي هنا ،

على أبواب أوربا من شرقها يقرعها بقوة وعناد بعد أن ألغاه الإلحاد الرسمي من خارطة الأحداث مدة ٧٤ سنة. خرجت المصاحف القرآنية من مخابئها ونفض عنها المسلمون غبار الدهر كأنما هي كنوز العائلات فتحت عنها صناديق قديمة كانت تضمها في بعض الكهوف والمغارات ردحا من الزمن خوفا من اللصوص والقراصنة.

وهاهي تخرج للنور: محارات وأصداف وألماس. كلمات من نور الفرقان تبعث في النفوس التوهج وتعرج بها عن مادة البؤس إلى ملكوت الله عز وجل.

نهضت شعوب الإسلام في ماكان يسمى الاتحاد السوفييتي لتذيب ثلوج ٧٤ عاما من الجليد الملحد ولتحطم الأصنام وتعيد قراءة تاريخها؛ ولأول مرة في تاريخ الإنسانية ترفع الذاكرة إلى مصاف السلاح القوي الناجع لمقاومة القهر.

لا شرقية ولا غربية

تناثرت إذن أجزاء هذا الاتحاد السوفييتي فاتحدت أجزاء أوربا الغربية بأوربا الشرقية. أصبحت أوربا لا شرقية ولا غربية. **عالما واحدا ميزته الأساسية أنه غرب مسيحي بإزاء الإسلام.**

كان التقاء أوربا كذلك على صعيد الحريات العامة وحقوق الإنسان المفرد وحقوق الشعب المستقل وقيم التحررية الاقتصادية وسوق المزاحمة الحرة.

على صعيد الإنسان المفرد: وعى المرء بحقه في الحياة الكريمة ونادى بضرورة ممارسة حقوقه المعترف بها أمميا كحق

الحياة والمساواة والتعلم والعلاج والتنقل وإبداء الرأي.

وعلى صعيد الشعب المستقل: وعت المجموعات القومية بحقها في تسيير شؤونها وحرية اختيار انتمائها الثقافي واللغوى وكذلك حرية الانتماء إلى مجموعة سياسية مركزية (حال اوربا اليوم وحال جمهوريات روسيا المستقلة منذ عام ١٩٩٢م حسب وثيقة الاتحاد).

جرت هذه التحولات بعنف أو برفق حسب معطيات كل مجتمع؛ ففي حين اندلعت الثورة دموية جارفة في رومانيا تم التغيير بسلام في كل من تشيكوسلافاكيا والمجر وبلغاريا وألمانيا الشرقية وبولونيا.

وفي حين تنفجر الحرب في يوغسلافيا كأعنف ماتكون الحرب ضراوة وقسوة، تقطع ألبانيا خطوات حقيقية نحو الانفراج المدني ومشاركة الناس في تقرير مصيرهم.

وفي هذا المناخ من التحولات الكبرى، التفتت الدول الكبرى إلى ترساناتها النووية والضاربة تحد منها حسب اتفاقيات تقضي بتحطيم جزء منها، ومضت برلماناتها تحد من الموازين المخصصة للتسلح والدفاع بنسبة نحو ١٠ بالمائة عام ١٩٩٢ وبنسبة ٣٠ بالمائة عام ١٩٩٥ . هذا يعني أن ٣٠ بالمائة من المجهودات المالية والبشرية في تلك الدول ستوجه للبحث العلمي والإشعاع الاجتماعي والثقافي ودعم برامج التربية والتعليم وتنمية الجهد الإعلامي. عند انتهاء الحرب الباردة أو الحروب الساخنة بالتفويض والإنابة، أصبح العالم في مأمن من المصاريف العسكرية الباهظة.

هكذا إذن حصل الكسر في خط التاريخ، **ليجعل الغرب موحدا متضامنا بازاء العالم الإسلامي وهو على حالة من القوة والضعف، والعلو والبؤس، والمنعة والوهن. وإننا اليوم نقرأ لمفكري الغرب المسيحي عشرات المؤلفات تعلن عن هذه المواجهة المرتقبة وتمهد لها الرأي العام في أوربا وأمريكا. وإننا نطلع يوميا على أجهزة إعلامهم تحاول بلوغ جماهيرنا المسلمة بالكلمة المكيفة المدروسة والصورة الذكية المحقونة حتي يتاح للغرب كسب المعركة قبل بدئها والفوز بالنصر قبل المواجهة ليصدق عنوان كتاب الرئيس الأمريكي الأسبق رتشارد نكسن (النصر بلا حرب).**

نعم إن الكسر الحاصل في خط التاريخ يُؤْجدُ اليوم مواجهة بين الإسلام والغرب؛ ولم يعد العالم منقسما إلَى غرب تحرري وشرق شيوعي، ولم يعد منقسما كذلك إلى شمال غني وجنوب فقير؛ إن الخط الفاصل اليوم يقع بين الإسلام والغرب، وليس في وصفنا لهذا الواقع الراهن ميلنا إلى التعبئة. فليس في الأمر مواجهة عسكرية أو صراع سياسي بل نحن نسعى الى ايقاظ الضمائر المسلمة حتى تعي ملابسات ونواميس المرحلة العالمية المقبلة علينا **وحتى نتسلح بمشروع حضاري إسلامي مسالم نواجه به تحديات المستقبل.**

إنه من نافلة القول أن نؤكد الاهتمام الواسع والعريض للغرب بضروريات المرحلة القادمة وأن انشغال المسلمين عنها بأشياء أخرى ثانوية.

إن وجودنا نحن المسلمين اليوم هو الذي في الميزان. إنه رهان بقاء أو زوال.

هل ينجح غلاة الغرب المسيحي ومتطرفوه في أن يعزلوا الإسلام كحضارة وكأمة عن حركة التاريخ في القرن الحادي والعشرين؟

هل يمتلكنا نحن الوعي الحالي بخطورة هذا الظرف: أي كسر التاريخ. أو كما سماه المفكر الأمريكي من أصل ياباني فوكوياما: موت التاريخ.

وأذا ماوعينا. هل أعددنا مااستطعنا من قوة لإعادة الإسلام لسالف دوره الرائد على مسرح الكون واستحضار روحه المريدة الفاعلة الجسور في خضم هذا العصر المتلاطم.

الفصل الثاني
قصة المثلث الرهيب

ويشتمل على :

- قصة الانشطار
- النهج الثالث
- المثلث القوى
- أين نحن من المثلث
- هذا هو حالنا اليوم
- دعاوى وحقائق

قصة المثلث الرهيب

عندما وضعت الحرب العراقية الإيرانية أوزارها عام ١٩٨٨ بعد ثماني سنوات من الدمار والخراب أصابت الأمة الإسلامية وانتعش خلالها تجار السلاح الذي كدسه الطرفان وبعد أن هدأت العواصف، بدأت ملامح سلام نسبي تظهر للمسلمين في المنطقة، صحبتها ظاهرتان مميزتان:

١ - بلوغ بعض البلدان الإسلامية درجة طيبة من المنعة الاقتصادية والتحكم في التكنولوجيا والبحث العلمي منها دول الخليج العربي والعراق ومصر وباكستان، ونجاح بعض البلدان في السيطرة على مشكلاتها السياسية بالاعتماد على الشورى والسلم الداخلية دون كبير هزات، مع قيام مجموعتين داخل العالم العربي تنبآن بأن دولة قادرة على الاتحاد التلقائي والتدريجي المنسق للجهود: وأقصد بذلك مجلس التعاون الخليجي واتحاد المغرب العربي.

٢ - تواصل وشمول ثورة الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة بالانتفاضة المباركة وفجأة وبسقوط الألف شهيد من الاطفال الفلسطينيين بدأ الصمم العالمي ينجلي وسقطت دعاية إسرائيل القائلة بأنه ليست لديها مشكلة مع شعب فلسطين، وتحركت شرائح مختلفة من أمريكا وأوربا وحتى من داخل إسرائيل لتقول كلمتها في ضرورة إيجاد حل عادل يضمن للشعب الفلسطيني دولته على أرضه المستقلة.

لأول مرة إذن حصل هذا الكسر التاريخي على المستوى الدولي وعلى المستوى العربي الإسلامي. لأول مرة منذ سنة ١٩٢٤م. فعندما انتصر الإنجليز والفرنسيون في القضاء على الخلافة العثمانية بإثارة القوميات ضدها - ومنها القومية العربية - بدءوا ينفذون الخطة السرية التي وضعوها في محادثات سايكس - بيكو (وزيري خارجية بريطانيا وفرنسا) وذلك في شهر مارس ١٩١٦م. فاندثرت مركزية القيادة الإسلامية وتشرذم القرار السياسي الإسلامي وبدأت عمليات تقاسم تركة الرجل المريض.

وفي نفس الآونة التاريخية انتصرت الثورة البلشفية بقيادة لينين في روسيا القيصرية وشرع المد الاحمر يكتسح كل الشعوب المحيطة بروسيا منذ ١٩١٧م إلى أن ابتلع الدب نصف أوروبا مع الحرب الكونية الثانية واقتسم الأرض مع العملاق الأمريكي.

وتعودت الانسانية منذ ١٩٤٥م على تعادلية الرعب النووي وعلى الحرب الباردة وعلى الحروب الاقليمية بالإنابة وانشطرت ألمانيا إلى شرقية وغربية وانشطرت كوريا إلى شمالية وجنوبية وكذلك الصين واليمن. ونحسب أنه بعد توحيد اليمن سنشهد توحيد الصين بعد سقوط الأيديولوجيات. والأهم من ذلك بالنسبة لنا كعرب ومسلمين - هو انشطار نخبنا الحاكمة أو المثقفة منذ ذلك التاريخ إلى معسكرين اثنين: معسكر ميّال

لأمريكا ومتعلق بالتحررية والعالم الحر ومناد بما يسميه (اللحاق بركب الحضارة) ومعسكر تشبث بأهداب الماركسية والجدلية المادية وصراع الطبقات حتى ولو ألبس هذه العقيدة لبوس القومية أو الوطنية أو حاول ملاءمتها مع الفكر الإسلامي.

وحلت بالمسلمين نكبات الانتماء الشكلي لهذا أو ذاك من المعسكرين، فقامت أنظمة مستبدة باسم (الوحدة القومية أوالوحدة الوطنية) التي تحولت بصورة آلية إلى وحدة الحزب الواحد الحاكم بأمره ثم في مرحلة ثالثة إلى (وحدة الرجل الواحد الأحد والقائد المفرد للكفاح والضامن للنجاح!) واذا اتفق المعسكران هنا وهناك على هذا التمشي الداعي (أي من وحدة الأمة الي وحدانية الحزب إلى وحدانية القائد المعصوم من الخطأ) فإنهما اختلفا على النهج الاقتصادي والشعار السياسي. فنادى الأول إلى الاشتراكية والعلمانية والتمكن من التقنيات واحداث التعاونيات مما أدى إلى بيروقراطيات هزلية تكفل كتاب المسرح العربي بفضحها في أعماق شعبية شهيرة. بينما نادى الثاني بملاحقة «الشيوعيين الملحدين» وتخريب بيوتهم وملئ السجون والمنافي بهم وبمن لف لفهم وبإخوانهم وأبنائهم وأبناء عمومتهم أجمعين.

النهج الثالث

لكن نخبة ثالثة ظلت مهمشة في أغلب عالمنا الإسلامي، وهي المؤمنة بأصالة شعوبها وانغراس أمتها في التربة الإسلامية

وتمسكها بلغتها العربية، وكانت تؤمن أيضا بأن طريق الخلاص لا يكون إلا بالنهج الثالث - لا شيوعية ملحدة مركزية خانقة ولا رأسمالية متوحشة مفترسة - ولكن ارتكاز على العدالة الاقتصادية والاجتماعية بمفهومها الإسلامي الثوري وتطور مع العصر الراهن بدون التفريط في كبرياء الماضي والاستلهام من تراث الأمة وايقاظ ضميرها الحي.

هذه النخبة تواجدت في كل بلاد الإسلام وكان صوتها الهادئ لا يكاد يبلغ مسامع الناس من كثرة ضجيج الأيديولوجيات شرقا وغربا، ذلك أن هذا الضجيج كان يخطى بمضخمات الصوت القادمة من موسكو لهؤلاء ومن واشنطن وأوربا لأولئك. ومن سوء حظ هذه الأمة أن تواصل التسابق بين المعسكرين جيلا كاملا أي نحو ثلث قرن ضيعت خلالها فرص ثمينة للتنمية والنهوض وهدرت فيها طاقات المسلمين إلى جانب خسران معاركنا ضد المحتل الصهيوني وسط الصراخ والشعارات. واعتقد أغلب أهل الفكر أن مقايضة الحريات الأساسية بتحرير الأرض أمر ممكن، وأن مقايضة استقلال الرأي بتقدم الأمة شئ ضروري، تماشيا مع شعار «غدا اللقاء في تل أبيب» بينما تل ابيب اتسعت وانتشرت حتى كاد أعداؤنا يلتقون في عواصمنا. . بل التقوا في بعض عواصمنا منذ بدء عملية ماسمي بالسلام في ماسمي بالشرق الأوسط! وهكذا حل بالعالم العربي الإسلامي هذا الكسر في خط التاريخ. حدثت الرجة، بل الطامة الكبرى عندما انهار العالم الشيوعي وامتزج

الشرق بالمغرب. فأخذ ذلك النهج الثالث - أقوم المسالك - يسعى لاستقطاب الأنظار، ويعيد قراءة تراثه الإسلامي على ضوء العصر والتحولات العميقة ويدعو لإقرار الحوار على مستوى الوطن الواحد واقرار الحوار بين الشعوب المسلمة والسعى إلى توحيد الجهود وترسيخها على قواعد المعرفة الرصينة والعلم الحديث والإسهام في صنع التاريخ.

المثلث القوي

من أروع مايقرأ كتاب أمريكي صدر عام ١٩٥٨م بعنوان قوة الإمبراطورية كتبه (در نكور) وقال فيه بالحرف إنه لن يمر جيل حتى ترتسم خارطة العالم على شكل مثلث ستراتيجي قواعده واشنطن وبرلين وطوكيو!

هكذا تكهن المفكر الامريكي منذ ثلث قرن وهكذا سارت الأحداث باتجاه المثلث الموعود. يتحرك العالم من حولنا في هذا النهج، ليصبح وحدة متماسكة قوية قاعدتها المثلثة تضم العواصم الأكثر انتاجا والأوفر تحكما في التكنولوجيا والأوسع تأثيرا اقتصاديا و . . . طبعا ثقافيا. حول واشنطن نجد أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية وكندا أي ثلث مساحة الكرة الأرضية. حول طوكيو نجد اليوم أغلب بلدان آسيا بفضل محطات ثانوية للصناعة اليابانية مثل ماليزيا وتايوان وكوريا الجنوبية وهنغ كنغ وتايلندا والفلبين. حول برلين بدأنا نرى كل القارة الأوربية غربيها وشرقيها بسبب قوة المارك الألماني.

هذا هو المثلث الاستراتيجي الذي يتمحور حوله مانسميه بالنظام العالمي الجديد. الدولار والين والمارك هي العملات المتحكمة في أسواق النقد الدولية. رساميل الشركات الأخطبوطية متعددة الجنسيات معظمها في أيدي أبناء المثلث من شركات التغذية إلى شركات تسويق النفط إلى شركات غزو الفضاء إلى مؤسسات الصناعات العسكرية إلى انتاج الأشرطة الكرتون لأطفالنا إلى إنشاء القنوات الفضائية وعددها ألف قناة فيما بين الولايات المتحدة واليابان وألمانيا.

ميزة هذا المثلث انه غربي الأصل والمنطلقات. قيمه الأولى التعلق بالتحررية الاقتصادية وتكريس المزاحمة الحرة أسلحته الكبرى إنه ينبوع التفوق التكنولوجي والاتصالي وتراكم المعلومات.

لاحظوا هنا أمرين أساسيين:

الأمر الأول: هو واشنطن المنتصرة الكبرى في الحرب الكونية الأخيرة شركت باختيارها في زعامة العالم أكبر المهزومين في الحرب أي ألمانيا واليابان. وضعت واشنطن كل ثقلها بعد الحرب على هذين القطبين المنهزمين لتصنع منهما قوتين اقتصاديتين تدوران في فلكها وترتبطان ارتباطا استراتيجيا قويا بالمركز الأصلي أي الأمريكي. وهو من صنف الارتباط الذي يلغي التسابق والتزاحم لإقرار التوازي في المسار مع المحافظة على الغلبة الأمريكية.

لقد وقع تحويل الهزيمة العسكرية لهذين الشعبين إلى

انتصار اقتصادي ونقدي وتكنولوجي مشهود به. ولكنه انتصار لفائدة سيادة المركز الأصلي. فلا ألمانيا ولا اليابان تستطيعان أن تتحديا المركز الأصلي.

الأمر الثاني: هو أن انفجار الاتحاد السوفيتي أدى إلى ضرورة اختيار حكامه الحاليين للانضمام لهذا المثلث دون الطموح لجعل المثلث مربعا ودون توق موسكو لأن تصبح قوة مقتدرة. فأربع وسبعون عاما من القهر والكبت أتت على الأخضر واليابس في الاتحاد السوفيتي سابقا ومشكلات القوميات الناهضة لا تحل بسهولة وآخر الانفجارات كان انفجار جمهورية الشيشان المسلمة، وهي مسلمة منذ سنة ٢٣ هجري - ٦٣٤ مسيحي أي منذ فجر الإسلام وواجهتها موسكو بحرب إبادة وتدمير.

هذا هو المثلث الذي سيلج عتبة القرن الحادي والعشرين، ولا تفسير لكل أحداث العالم اليوم إلاّ من خلال هذه الزاوية.

أين نحن من المثلث؟

فأين نحن العرب المسلمين من هذا المثلث، وماهو موقعنا، وبأي مثقال يزن العالم حضورنا؟

هناك مدرستان في هذه العواصم:

مدرسة تقول إن الإسلام (مليار مسلم) له من الوزن اليمغرافي ومن الوزن الاقتصادي (نحو نصف إنتاج الطاقة) من الوزن الاستراتيجي (سيادة المعابر المائية الكبرى ووجودنا على

ثلاث قارات) من الوزن الثقافي (بفضل الصحوة الإسلامية) هذا الإسلام يمكن أن يكون عنصر إثراء للنظام العالمي الجديد - أي في الحقيقة للمثلث - وعليه يجب التدرج بهذا العالم الإسلامي نحو قيم التحررية ومبادئها والعروج به إلى السلام العالمي - بعد حل القضية الفلسطينية - ومساعدته على حل معضلات التنمية والتشغيل وتوفير أمنه الغذائي.

هذه المدرسة لا تنطلق من النوايا الطيبة بإزاء الإسلام والمسلمين ولا تنطلق من مشاعر مودة رومسية لنا. بل هي تعلن أن ذلك سيخدم استراتيجيا المثلث المذكور بأن يصد جيوش المهاجرين القادمين من بلدان الإسلام - أو الجنوب - ليمنعهم من غزو بلدان المثلث وبالتالي يقطع هذا التهديد المحتمل والوارد من أساسه.

ويتكلم احد دعاة هذه المدرسة وهو الرئيس الفرنسي السابق فاليري جسكار دستان في تصريحاته (أيلول ١٩٩١) عن الغزو القادم وعن بواخر مشحونة بآلاف البشر مثل مراكب الآسيويين الهاربين من كمبوديا وفيتنام، هذه البواخر سوف تحمل لأوروبا آلاف وربما ملايين الجوعى والعرايا والمصابين بالطواعين لتحط في سواحل أوروبا - إحدى ركائز المثلث - يتكلم عن ذلك مستعملا عبارة الغزو، ولم يخف أنه يقصد بخاصة المهاجرين المسلمين حيث إنَّ أوروبا الموحدة لم تعد تعتبر الأسبان والبرتغاليين والايطاليين ولا حتى سكان ماكان يسمى بأوروبا الشرقية مهاجرين قادمين من خارج أوروبا، بل هم

أوربيون كاملو الحقوق وهم بخاصة مسيحيون أي مندمجون في الحضارة الغربية.

أما المدرسة الأخرى فيتزعمها اليمين العنصري المتطرف واليمين المسيحي المتعصب وهي تنادي عالمنا بتحييد الإسلام وإلقاء المسلمين خارج الحضارة الجديدة. وهذه صحف (بريزون) و(فيداليتار) و(كريدو) و(الارض والحياة) و(ركنكيت) وتصاحبها كتب عديدة مثل كتاب (جون كلودبارو) رئيس ديوان الهجرة العالمي بفرنسا بعنوان (عن الإسلام خاصة وعن العصر الراهن عامة) وهذه أيضا عديد الأشرطة السينمائية والحصص التلفزية والمناشير الكثيرة والجمعيات والتنظيمات في كامل بلدان أوروبا وفي الولايات المتحدة تدعي هذه المدرسة بأن الإسلام سيظل العائق الأوحد أمام تحقيق النظام العالمي الجديد - أي سيادة الثالوث - ولذلك وجب تحييده والعمل على احباط مساعيه بالثقافة أو بالحرب العسكرية إذا لزم الأمر، مع إعادة المهاجرين المسلمين إلى بلدانهم الأصلية ومزيد إحكام غلق الحدود في وجوههم مضايقة من حبذ البقاء منهم في الغرب حتي يولوا الأدبار.

هذا هو حالنا اليوم

وهو ليس جديدا، اذا ما قرأنا عجائب التاريخ، **فالمواجهة بين الإسلام والغرب هي المواجهة المركزية الكبرى في التاريخ بعيدة وقريبة.**

فالغرب نفسه لم يصبح غربا إلا بازاء الإسلام. الإسلام هو ذلك العدو التقليدي في أوقات الحرب والخصم التقليدي في أوقات التهادن أو السلام.

حتي تواريخ الغرب تحدد غالبا بازاء الإسلام: ٦٧٠م سقوط قرطاج وتأسيس القيروان إيذانا بدخول المغرب في الإسلام وتطويق البحر الأبيض المتوسط؛ ٧٣٢م توقف المد الإسلامي في مدينة بواتيي الفرنسية وانبعاث الأمة الفرنسية. كان ازدهار الإسلام وحضارته دائما هو المؤرخ لتشرذم الغرب وتشتت شعوبه وانعدام فكره.

ازدهر الفكر الإسلامي المعطاء من أبي ذر الغفاري إلى حسن البصري وواصل بن عطاء وعمر بن عبيد وصولا إلى الجاحظ في الفلسفة والأدب، وإلى الخليل بن أحمد وسيبويه في اللغة ثم إلى علم الكواكب والنجوم لدى أبي معشر، إلى علم الجبر لدى الخوارزمي إلى العلوم الصحيحة لدى الكندي إلى علم القانون لدى داود بن خلف الى الموسوعات لدى ابن قتيبة إلى ابن ماسوية معرب نفائس الكتب اليونانية إلى الجغرافيا لدى اليعقوبي وإلى علم التاريخ لدي البلاذري.. وصولا إلى ابن خلدون ومرورا ببيت الحكمة بالقيروان ومدرستها الطبية لدى ابن الجزار ومدرستها الأدبية لدى الحصري وابن رشيق وابن شرف ومدرستها القانونية لدى الإمام سحنون.

هذا في كلمات موجزة مايسمى العصر الذهبي الذي تؤرخ إزاءه أوروبا عصر انحطاطها. وهو العنصر الذي قاد حتما إلى

الحروب الصليبية.

فهل نشأت العقيدة الصليبية في آخر القرن الحادي عشر مسيحي لاستجلاء أسرار ذلك العصر الذهبي والوصول إلى مكامن العقل العربي المسلم؟ أم أرادت الحملة الصليبية الأولى تحت غطاء حجج دينية بلوغ سر التقدم الإسلامي أم القضاء على ذلك التقدم في مهده أي ضربه في الشرق، أم كانت غاية الصليبيين استكشاف أصل ذلك الينبوع المتدفق من علوم وطب وهندسة وحساب وبلاغة وأدب بالذهاب إلى مصدره لخنقه من نقطة انطلاقه؟

دعاوي وحقائق

ان طليعة الحجج التي يستعملها أعداء الإسلام الادعاء السائد بأن الغرب المسيحي فصل بين الدنيا والدين بينما يخلط الإسلام بينهما. وهو رأي خاطئ يردده كذلك المسلمون أنفسهم من منطلق العلمانية أو محاذاة العصر.

والصحيح هو أن الأديان السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام لها تاريخها الدالّ على أن التفريق بين شؤون الدنيا وشؤون الدين ليس هينا أو آليا أو ممكنا تماما.

فالمثال الحي القائم في الخلط الكامل بين الدين والدنيا هو مثل دولة اسرائيل. فكل الدولة وسياستها وخريطتها ومؤسساتها نشأت عام ١٩٤٨م عن قراءة متعسفة ومتطرفة وخرافية للتوراة. بل إنَّ الأسطورة الصهيونية عوضت كل المواثيق الدولية لدى

هذه الدولة. وهي الدولة الوحيدة في العالم التي أطلقت على نفسها اسم نبيها إسرائيل. والوحيدة في العالم التي لا تملك خريطة رسمية. فهي تنحصر أو تتسع وتكتسح أراضي سواها حسب قوتها العسكرية التي تعتبر ذيلا أمريكيا، لا حسب القانون الدولي ولا حسب حدود مرسومة في معاهدات.

إن الغرب العلماني ينسى هذا المثل القائم. لأن علمانيتهم ليست موجهة ضد الأديان عموما وإنما ضد الإسلام وحده كعدو تاريخي.

فحتى الكفاح الفلسطيني مفهوم شيئا ما لديهم إذا ماكان علمانيا ولكنه يصبح خطيرا إذا صدر عن منظمة حماس الإسلامية. بينما حركة حماس هي جواب طبيعي عن حقد ديني صهيوني عنصري، ويدعو ميثاقها الى تحرير الأرض المحتلة لا إلى فرض الإسلام على من هو غير مسلم.

وينسى الغرب أن الكنيسة هي أول مؤسسة دينية مارست الحكم الدنيوي كليا، عندما أخضع القساوسة الامبراطورية الرومانية لسيطرتهم. وبلغ الأمر بالبابا سلفاستر عام ٧٧٨م أنه مارس الحكم على كل ايطاليا وماتبعها من أرض الرومان.

تقول المؤرخة (جانين كيليي) في كتابها المنشور عام ١٩٧٢م (مفاتيح النفوذ في العصر الوسيط): «كان الاساس الديني هو الموحد للجمهورية المسيحية، وانتصر في القرون الوسطي الرباط المسيحي على الروابط العرقية والثقافية والقومية والجغرافية ليجمع أوروبا كلها في دار المسيحية» ومن

ايطاليا المحكومة من طرف البابا، تسربت الدولة الدينية إلى فرنسا مع (شارلمان) الذي كان مولعا بدراسة الإسلام ومعرفة أحوال الأمة الإسلامية.

والى اليوم يسمى البابا نفسه ملكا والفاتكان دولة مستقلة لها سفراء وبنك وجيش زمزي.

الفصل الثالث

بعض الحقائق عن علمانيتهم

ويشتمل على :

- انحراف عن النهج القويم
- الإسلام واقوم المسالك
- السبب المشترك
- يقولون علمانيون

بعض الحقائق عن علمانيتهم

ذكرنا أنه إذا ماراجعنا أحداث التاريخ فإننا عاثرون على أن المسيحية مليئة أكثر من الإسلام بالصراع بين شؤون الدين وشؤون الدنيا. فقد كان أوج الصراع بين الكنيسة والمملكة في فرنسا في القرن الحادي عشر ميلادي عندما أعلن البابا غريغوار السابع الحرب الدينية الشاملة ضد ملك فرنسا هنري الرابع وتولى البابا الإعلان عن عزل الملك المذكور بعد أن أعلن الملك هنري الرابع عزل البابا المذكور. كان ذلك عام ١٠٧٦. أي في نفس الحقبة التاريخية التي كانت فيها أوروبا تستعد للحملات الصليبية الأولى على المسلمين.

وحلت الحرب الأهلية بفرنسا بين أنصار البابا وأنصار الملك وأعلن البابا عن حتمية العصيان للملك فكاد هذا الأخير يفقد عرشه المهزوز ومات عشرات الآلاف في حروب ضارية إلى أن انهزم هنري الرابع وأعلن للبابا عن توبته النصوح وذهب لمقابلته وطلب الصفح حافي القدمين عاري الرأس في عنقه حبل تنكيلا به وأهانة له؛ وقتل هذا الملك بعد سنوات في تلك الحرب الضروس.

انحراف عن النهج القويم

أما في الإسلام فنجد أن الفكر السياسي ثري غاية الثراء ولم يكن الحكم باسم الدين إلا انحرافا عن أصل الدين لأن الجوهر القار في الإسلام هو الخلافة، واختيار الخليفة موكول للرعية

وكذلك عزله في حالة خروجه عن الصلاح وقيادة الأمة إلى الضلال. والخلافة أصلها في القرآن والسنة خلافة رسول الله وانحرف بعد ذلك معناها إلى خلافة الله - تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا - إذ إنَّ الله سبحانه استخلف الإنسان بأسره - أي المجموعة البشرية - ولم يستخلف منها فردا واحدا حتى ولو كان من أنبيائه ورسله. وشاع هذا الخطأ بسبب التناحر على الحكم منذ الفتنة الكبرى.

ونحن نذهب الى القول إنَّ هذا المبدأ الشوري السياسي الإسلامي الفذ - أي مبدأ الديمقراطية بالمعنى الحديث - هو الذي ساعد على انتشار الدين الحنيف لدى الروم والفرس والشعوب الأخرى. فرفع الإسلام المبدأ المتمثل في الآية ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [الكافرون: ٦] راية خفاقة بإزاءالشعار الذي رفعه الإمبراطور الروماني أغسطين وهو «لا رحمة خارج الكنيسة». ورفع الإسلام المبدأ القائل بإنسانية الرسول الأعظم في آيات عديدة منها ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] وذلك بإزاء مزاعم النصاري ألوهية المسيح.

كما رفع الإسلام المثل الاعلى المنصوص عليه في الشوري واعتماده أساسا للحكم ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى: ٣٨] إزاء شعار الإمبواطور - البابا سلفاستر والقائل: «بلا صليب هناك من تاج».

وهكذا فالإسلام اعتمد على الحرية فقها سياسيا شاملا: حيث كانت الحرية أساس اختيار خليفة رسول الله، ثم إن

الحرية كانت مبدأ عاما في القرآن للإشارة إلى شؤون الحكم والقيادة. فليس في اللغة العربية القرآنية مفردة واحدة تؤدي معنى الحكم والسلطة معبرة عن المعنى الحديث (power) أو (pouvoir).

بل هناك ألفاظ شتى؛ أشهرها لفظ أمر: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]

﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]

وهناك لفظ سلطان: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦]

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وهناك لفظ الملك: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهناك عبارات أخرى تدور في فلك الحكم منها الشوكة والسؤدد والولاء إلى غير ذلك من البيعة والإجماع وخاصة عبارة الشورى من قوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ثم ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى: ٣٨]. . . فالفقه السياسي الإسلامي غني مفعم بالمعاني المشيرة إلي حتمية المشاركة والإسهام منذ فجر الإسلام ولم تصب هذه الأمة في صميمها بالتخلف المقرون بالاستبداد إلاّ في حقبات نزوعها عن هذا النهج القويم الذي اهتدى إليه الغرب حديثا وأصبح لديه مصدر قوّة تنموية واقتصادية ومصدر حضور سياسي وثقافي متميز.

فبعكس المسيحية التي لم تقنن إرادة الشعوب وتركت الحبل على الغارب، تعمق الإسلام بكتابه وسنة رسوله في أقوم مسالك حكم الرعية وحمّل هذه الرعية المسؤولية في حكم نفسها حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في حديث له: **(استفت قلبك . . . وإن أفتاك الناس)** وهو تشريع نبويّ بليغ العبارة قوي الإشارة إلى ضرورة إعمال العقل لدى الإنسان المفرد، فاتخذه صلى الله عليه وسلم مصدرا للإفتاء وإن أفتاه الناس. أي أن المواطن الفرد قادر على إصدار فتوى لنفسه إذا ما أعمل العقل ولاءم بين حكم العقل وحكم الله تعالى.

هذا إلى جانب حث القرآن الكريم على السير في الأرض والتأمل في عاقبة القرون الأولى. . أي في الواقع الاعتبار بما

سماه عبد الرحمن بن خلدون فقه التاريخ وما أشار إليه القرآن بلفظه «سنن» من قوله تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ [آل عمران: ١٣٧] ونحن إذ أوردنا هذه الشذرات الإسلامية فإنما لنفند القول المأثور لدى أهل الغرب باقتران الإسلام بالاستبداد والمسيحية بالحرية.

إن هذه الأكذوبة ولدت مع رغبة أوروبا المسيحية في فرض هيمنتها على العالم الإسلامي والتوسع على حسابه «واستعماره في الحقيقة استخرابه» إنها الحجة الدامغة لديهم لبرير الاستعمار والسيطرة على ثرواتنا وعقولنا، والتبرير الجائر؛ وكان هذا دائما يقرن الإسلام بمعاداة العلم المحرر للعقول، أي بالتضاد بين تعاليمه وبين الحرية والفكر الحر. وأول من ركز على هذا الإدعاء هو المفكر والمؤزخ الفرنسي (ارنست رينان) في محاضرة شهيرة ألقاها بالسربون سنة ١٨٨٣ (١٦ مارس) بعنوان (الإسلام والعلم) وأكد فيها أن جوهر الإسلام مناف للعلم وللحرية ومدعاة لاستعباد الناس؛ وقد ورد على كلامه الشيخ جمال الدين الافغاني وكان في ذلك الزمن يصدر مجلته الرائدة (العروة الوثقي) من باريس بل التقى الرجلان في جدل عنيف ولم يخف العالم الفرنسي رينان إعجابه بشخصية الأفغاني الفذة وثقافته الواسعة.

هذان هما جناحا التجني الغربي على الإسلام.. بالأمس واليوم:

الجناح الاول: اتهامه باطلا بالخلط بين الدنيا والدين أو كما

يقول المثل المسيحي المعروف: ما لله لله وما لقيصر لقيصر.

الجناح الثاني: اتهامه باطلا بمعاداة العلم والحرية، أي في الواقع تلمحيا إلى أنه دين جهل واستبداد.

وعندما نقول التجني الغربي، فنحن نؤكد ديمومة هذين القولين من الصدمة الأولى بين الإسلام والغرب أي الحروب الصليبية إلى الصدمة الثانية أي الاحتلال الاستعماري إلى الصدمة الثالثة أي العنصرية الراهنة ضد المسلمين. ومهما اتخذت هذه التجنيات أشكالا متباينة فهي تتمسك بنفس الحجج لتدمير كبرياء المسلمين وتقويض ثقتهم بدينهم. فمنذ خطبة يوربان الثاني البابا الذي دعا للصليبية إلى أرنست رينان وصولا إلى جون كلود بارو نجد خطا مستقيما من الفكر الغربي المعادي للإسلام، لم يتأثر بمرور الزمن ولا بانجلاء الاستعمار ولم يعتبر باحباط الصليبية، وإنما ظل صامدا في أكاذيبه.

والأمر يهون لو اقتصر على علماء الغرب، بل إنَّ ذيولهم العربية ماتزال تكرر في مقولاتها نفس الأباطيل بدعوى التمسك بالتفتح على العصر وملاءمة العالم الإسلامي مع «الحضارة» وهم في الواقع يدعون إلى الذوبان الكامل في القيم الغربية، بحجة الذوبان في القيم العالمية الإنسانية.

والغريب في هذا المنطق الشمولي هو أننا لو استعملناه نحن العرب والمسلمين لقلنا إنَّ هناك عداء جذريا بين المسيحية والسلام! مادامت البشرية ذاقت الأمرّين في مأساتي الحربين الكونيتين الأولى ١٤ - ١٨ والثانية ٣٩ - ٤٥ ونتجت عنهما

كوارث أهمها موت مايقرب من خمسين مليون نسلمة من أبناء آدم وأبرزها كذلك محق مدينتين يابانيتين هيروشيما وناغازاكي بالقنابل النووية وإحداث كوارث طبيعية لوثت الأراضي والبحار والمحيطات إلى يوما هذا، مع الجراح الثقافية والنفسية التي لم تندمل إلى الآن.

نعم! حربان كونيتان هزتا العالم، دارتا في نصف قرن من الزمان، أي في جيل واحد بين أمم مسيحية أصلا؛ ترتاد نفس الكنائس وتسمع خطب نفس الرهبان.

فهل نقول إن المسيحية كدين وكحضارة هي ضد الإسلام وهي صنو الحرب والدمار؟

لا. فمن العسف الإقرار بذلك. ولكن الغرب يتهم ديننا بأنه مناف للعلم وللحريات بذلك المنطق نفسه!

إن الانقطاع والتواصل بين الدين والعلم، أي دين، تراوحتا في كل الحضارات ولم ينفرد بهما الإسلام. وكل التاريخ البشرى كذلك حلقات من الانقطاع والتواصل بين الأديان والحريات؛ انقطاع ثم تواصل أيضا بين الأديان والريادة الفكرية، بين الأديان ونشوء الدول القوية. هي مواعيد مع التاريخ تعرفها كل الحضارات. وعرفها الإسلام مثل سائر الأديان.

تأملوا حلقات التاريخ!

تجدوا امبراطوريات عظمى كانت تقود بقية العالم ثم

انقرضت: إمبراطورية الأوزكا بالهند، وإمبراطورية سي هوانغ تي بالصين وتموز بمصر الفرعونية وحامورابي ببابل والأنكا بأمريكا اللاتينية والأزتك بالمكسيك وقياصرة الروم بروما والحضارة الفينيقية بقرطاج ثم الأقرب إلينا زمنيا، الخلافة العثمانية باسطمبول والإمبواطورية البريطانية والفرنسية ثم الإميرطورية السوفيتية منذ ١٩١٧ ونشأة الأمبراطورية الأمريكية مع الحرب العالمية الثانية حديثا.

السبب المشترك

أما إذا أردنا أن نختصر سببا مشتركا لانيهار هذه الإمبراطوريات، تجتمع فيه كلها رغم تباين الظروف والأزمان، فالسبب الدائم هو عزل العقل عن عرشه الذي مكنه منه الله في القرآن وملاحقة الرأي الحر وتشرذم الزعامة إلى طموحات ذاتية لبلوغ القوة والثروة والحكم.

فقد بدأ سقوط الإمبراطورية الرومانية حينما ابتلعتها الكنيسة المتطرفة، وحطت عليها بثقلها ورهبانها وإقطاعها بدأ من سنة ٧٧٨م فأحرقت المؤلفات وطورد الفكر.

وبدأ انهيار الخلافة الإسلامية في بغداد العباسية عندما جف ينبوع الأدب العبقري والحركة العقلية وانطفأ نور البحث والتحديث والتربية. حتى إنه من الرموز الغنية بالمعاني أن يكون آخر الخلفاء المستعصم بالله ذلك القائد الضعيف.

ومن عجيب مايقرأ المرء ماورد على لسان آحد معاصريه

وهو محمد بن علي بن طباطبا المعروف بالطقطقي واصفا الخليفة المستعصم بالله في كتابه غير المعروف كثيرا وعنوانه **(الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)** صدر عن المطبعة الرحمانية بمصر عام ١٩٢٧م ولم أر لهذا الكتاب طبعات مشروحة ولا ترجمة للغة أجنبية رغم أهميته القصوى.

يقول المؤرخ في المستعصم بالله: «كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور. وكان زمانه ينقضي أكثره في سماع الأغاني والتفرج على المساخرة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أراذل العوام..»

هكذا كان حال آخر الخلفاء الذي انتهت عنده دولة العباسيين العتيدة، وقد دخل المغول إلى بغداد وقتله قائدهم هولاكوا وأحرق مكتبة بغداد التي كانت تعد ملايين الأسفار ونفائس الكتب. وقد أوردت هذا الوصف للطقطقي لأخلص للقول إن ذلك هو حال أغلب الحكام في النكبات والهزائم العربية الإسلامية.

ويعلم القارئ كذلك ماكان من أحوال انهيار الأندلس بعد اضطهاد المفكرين والفلاسفة ورجال العلم والدين وماكانت هذه السنوات الأخيرة من حال الامبراطورية السوفيتية حتى إن آخر العباقرة الروس كانوا دستويفسكي وتولستوي وجوركي ثم جف دفق الفكر لمدة نصف قرن إلى أن عاد قويا على أيدي الثوار ضد الشيوعية أمثال بوريس باسترناك والكسندر

سلجنتسين، وهما الفائزان بجائزة نوبل للآداب ومضطهدان ومحرومان من جنسيتهما السوفيتية.

يقولون علمانيون

ونحن العرب المسلمين أصابنا ما أصاب أُمَماً غيرنا من الجمود والتحجر وتوقف الاجتهاد وإعمال العقل النير؛ ولكن إذا سألنا مستشرقا غربيا: لماذا تخلف المسلمون وتقدم سواهم؟ فإن أول جواب يأتي آليا: «لأن الإسلام لا يفرق بين الدين والدنيا! وهذه المقولة نقرأها في الكتب المهتمة بالإسلام؛ بل وأصبحت عقيدة حتى لدى كثير من المسلمين. وهو رأي صليبي عنصري. فأوروبا اليوم ومعها أمريكا قارتان تتشبثان بالمسيحية، وهذه أمثلة قليلة:

فرنسا أم (اللائكية) أي العلمانية: القانون فيها بمجلتيه الجنائية والجزائية مستمد من الوصايا العشر ويعود عهده إلى نابليون ١٨١٠م.

هولندا: ٣ بالمائة من مداخيل المواطن تدفع للكنيسة.

ألمانيا: الدولة نفسها تدفع للكنيسة ١٠ بالمائة من ضريبة السكان.

أسبانيا: تدفع الدولة للكنيسة سنويا ١٤ مليار بيزتا.

إيطاليا: ٨ من ألف من مداخيل كل إيطالي تدفع للكنيسة.

البرتغال: الدولة تدفع أجور القساوسة وتعتني بالكنائس.

بريطانيا: الكنيسة الأنغاليكانية هي الجهاز الرسمي للعرش. والملكة هي حاكمة الكنيسة الأنغليكانية.

دانمرك: الملك مجبور حسب الدستور أن يكون عضوا في الكنيسة اللوثرية.

اليونان: الدستور ينظم العلاقة العضوية بين الدولة والكنيسة.

آيرلندا: الكنيسة الكاثوليكية هي الرسمية وينظم النواب قداسا قبل كل دورة برلمانية.

والميزة المشتركة لكل هذه الدول هي أنها أيضا تدفع أجور الأحبار وتؤمّن البيعات اليهودية؛ وطبعا فإن العلمانية الأوروبية والأمريكية هي شعار أكثر منه ممارسة فعلية؛ ويمكن التذكير هنا بيوم الصلاة الذي دعا اليه الرئيس بوش في الولايات المتحدة أثناء حرب الخليج.

وهم يرفضون أن يدرجوا الصحوة الإسلامية المباركة ضمن الحركات الروحية والثقافية التي تهز الغرب اليوم ومنها حركة مايو ٦٨ في باريس التي دعت إلى التخلي عن الربح المادي المجنون واعتناق مذاهب التأمل والتجرد من المنفعية ورأس المال المتوحش. وكذلك الثورة الأخلاقية التي يعيشها المجتمع الأمريكي ومن أهم ميزاته العودة لحضن الأسرة واستحضار روح التقاليد القديمة التي زكتها الثورة الأمريكية منذ قرنين؛ ونعلم أن كلا من كارتر وريغن ركزا على هذه الثورة الأخلاقية لنيل أصوات الناخبين؛ كما أن تلك الثورة الروحية

هي التي أجبرت الرئيس نكسون على إيقاف حرب فيتنام بعد عشر سنوات من الدمار والتقتيل ومقاومة إرادة الشعوب ولم ينجح الرئيس كلنتون في الانتخابات إلاّ بالتذكير بموقفه الأخلاقي والمسيحي من حرب فيتنام؛ ونعلم أيضا أن الكنيسة كانت دائما وراء الثورات السياسية ضد الدكتاتوريات العسكرية في بلدان أمريكا اللاتينية منذ السبعينات، كما كانت الكنائس وراء تحرر شعوب أوروبا الشرقية فقادت حركات الجماير ضد المركزية الشيوعية الملحدة.

وبهذا المنطق يمكن تفسير ظواهر «الايكولوجيا» أي صيانة الطبيعة والبيئة وهي حركات تضم نحو ١٠ بالمائة من الرأي العام في أوروبا. إذ تحولت إلى أحزاب خضراء تشارك في الحكم وقد لاحظ الرأي العام العالمي أهمية حركة السلام الأخضر في الإضرار بمصالح فرنسا في العالم بسبب إجراء تجاربها النووية في المحيط الهادي منذ أغسطس ١٩٩٥م. فالصحوة الإسلامية المجتهدة النبرة تندرج ضمن هذه الحركات المباركة التي تعيد للإنسان إنسانيته بعد فشل الأيديولوجيات وإحفاق القوميات الضيقة.

ولا نفهم كيف نستطع اليوم تقديم صورة نيرة وحقيقة ومطمئنة عن الصحوة الإسلامية للرأي العام الغربي رغم ما لدينا من إمكانيات؛ حتى إن أعداءنا وخاصة الصهاينة يتسابقون في إبرازها في شكل تهديد للعالم الحر.. أي للنظام العالمي الجديد، كأنها حركة ردة عن السلام وعن الحرية وعن العصر.

تلك مهمتنا في هذا الزمن الصعب المتشعب!

الفصل الرابع
يقـــولون ونقـــول

ويشتمل على:

- الحضارة كونية
- الاساس هو التنمية
- معنى التعاون
- النقد والقرض
- مفهوم الدولة الحديثة
- حلم ماضي أو مشروع مستقبل
- جندوا الفلاسفة
- تجمعوا وتفرقنا

يقــولون ونقــول

سنحاول بهدوء تفكيك تلك الآلة العمياء: آلة المقاومة الإعلامية الغربية للإسلام. تفكيكها أو حلها للنظر فيها من الداخل: كيف تعمل؟ من يحركها ضدنا؟ كيف يشغلونها لتشويه صورتنا لدى الرأي العام ثم بعد تشويه الصورة وكسب ضمائر الناس يتصدون لسلب ثرواتنا ودحرنا ثقافيا وسياسيا وحتى عسكريا؟

فإذا مافتحنا قلب تلك الآلة وجدنا أن المحاور المستعملة ضد الإسلام تدور حول هذه الحجج التي سنعرضها واحدة واحدة لنعرفها ونرد عليها:

الحضارة كونية

١ - يقولون: الحضارة الانسانية اليوم أصبحت كونية في عصر انفجار وسائل الإعلام والاتصال ولا جدوى من التقوقع داخل قمقم الإسلام!

هذه هي الحجة الاولى:

ونحن نقول: إنهم يقصدون بالحضارة الإنسانية حضارة الغرب المسيحي - أو المسيحي اليهودي - وفي ظنهم يجب إن تسود تلك الحضارة على ماسواها ليعتنق العالم بأسره قيم الغرب ويخلع عنه رداءة ليندمج في الغرب؛ أي في الحقيقة يجب علينا لنكون معاصرين أن نقرّ بأن الحضارة الغربية القوية

هي الكونية وماعداها إقليمي متعصب متجزى منشطر ومعزول بالضرورة. والحضارة الكونية تقتضي بالطبع أن نسعى نحن لتعلم لغتهم والتشبه بتقاليدهم ونتخرج من مدارسهم ونلبس مايلبسون ونشتري ما ينتجون.

الأساس هو التنمية

٢ - يقولون: إن الأساسي الأهم هو التنمية الاقتصادية والإنتاج والتصنيع، وما التعلق بالثقافات إلا ضرب من ضروب البكاء على الأطلال!

هذه هي الحجة الثانية.

ونحن نقول: إنه لا تنمية حقيقية بدون أرضية ثقافية. الإنتاج الاقتصادي والتصنيع يخضعان للمادة ولكن التنمية مقولة ثقافية حضارية فكرية، تستند إلى قوى روحية كامنة في الشعوب كما تكمن النار في الصخر، لا تقدم اقتصادي بدونها. ليس هناك تنمية لشعب متخلف مغلوب. لشعب مستهلك لا إرادة له ولا اعتزاز لديه بماضيه ولا كبرياء في قلبه بأمجاده. لا تنمية اقتصادية لشعب مسلوب الحرية فاقد الوعي. تهزه الرياح إلى حيث تشاء لأنه لا وزن له، لا تثقله ثقة بذاته مستمدة من تاريخه ومن فكره وآدابه ولغته وعقيدته. اليابان فهم ذلك وحافظ على تقاليده واستقرت تنميته على قيم ومثل. اليابان لم يكن لقيط الحضارة.

معنى التعاون

٣ - يقولون: يجب التركيز على التعاون الدولي وإحياء التضامن بين الشعوب عوض انعزال كل أمة برأسها.

هذه هي الحجة الثالثة.

ونحن نقول: إنهم مايزالون يقصدون بالتعاون الدولي مجرد الإعانة وتقديم الإنتاج المصنَّع ومواصلة استغلال المواد الخام. العالم الإسلامي لديهم ينتمي إلى الجنوب، هو منتج مواد خام وقدره - حسب مخططاتهم - أن يظل كذلك إلى الأبد.

هذا هو التعاون الدولي في نظرهم وهذا هو المعنى الذي يعطونه لما يسمونه نقل التكنولوجيا. هذا النقل يكتفي بتصدير الجهاز المصنَّع النهائي لنستهلكه نحن ولا نصنعه.

كما أن التعاون الدولي في ميزانهم هو تصدير المواد الغذائية لنا حتى نبقى رهن السلاح الأخضر. وهو أخطر من السلاح النووي إذ يحدد في النهاية بقاءنا أو زوالنا من على سطح الأرض؛ فما دمنا لا ننتج مانأكل سنظل رهن قمحهم ولبنهم وسكرهم، حتى نعير مسألة الأرض لدينا الأهمية القصوى ونوجه مجهوداتنا وكفاءاتنا وأموالنا لتفجير المياه من الصحراء ومن الأرض العطشى؛ «**إن أمة لا تنتج ماتأكل هي أمة مستعبدة، إنه أنكى ضروب الرق**».

صحيح أن شعوب الإسلام أهملت الأرض وماتزال ونسينا أن أوروبا وأمريكا هي أمم زراعية قبل أن تكون صناعية

وتكنولوجية. نسينا أن أمريكا تنتج ثلث قمح العالم وأن أوروبا تنتج خمس الحبوب في الأرض؛ «**إن نهضة الإسلام الحقيقية يجب أن تبدأ من الأرض**».

النقد والقرض

٤ - يقولون: يجب أن يندمج المسلمون في نظام النقد العالمي (International Monetary System) التي أنشأت لها بنوك ومؤسسات نقدية دولية.

هذه هي الحجة الرابعة.

ونحن نقول: إن فلسفة حركة النقد العالمية هي أن تجعل البلدان الفقيرة تنتج أكثر والبلدان الغنية تستهلك أكثر، والحل الذي وجدوه لنا هو القرض، حيث بلغت قروض العرب وحدهم ١٥٠ مليار دولار، وبعض الشعوب المسلمة مثل الصومال وبنغلاديش والسودان يستحيل أن تسدد قروضها حسب تقرير البنك العالمي الأخير؛ إن فلسفة الاقتراض كلها يجب أن يعاد فيها النظر الجذري لتصبح عاملا للتنمية لا عاملا للاستعباد والقهر والتجويع.

إن الحل العادل الممكن: هو أن نجتمع نحن المسلمين على خطة نقابل بها خطة البنك العالمي وصندوق النقد الدولي، أي خطة الغرب الغني، وأن نفكر في إمكانية إعادة صياغة سياساتنا النقدية حتي تخدم مصالحنا نحن.

٥ - يقولون: إن الدولة الحديثة نتاج الحضارة الغربية. ولدت مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ولذلك يجب أن نتخذها مثالا يحتذى لقيادة مجتمعاتنا.

هذه هي الحجة الخامسة.

ونحن نقول: إن التراث السياسي الإسلامي من أغنى كنوز الحضارة الإنسانية ومساهمة الإسلام في بلورة وإنشاء مفهوم الدولة الحديثة لا تقل عن مساهمة الإغريق والرومان؛ إن القرآن الكريم كتاب مقدس وثورة رائعة ضد الظلم والفوضى، أقر به الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم دولة العدل والمساواة والمدنية، وجاءت السنة النبوية لتحدد الجوانب التطبيقية في الفكر السياسي الإسلامي؛ وتوالت الكتب السياسية التي بلورت مقولة الدولة مثل الأحكام السلطانية للماوردي وشرح التوضيح لصدر الشريعة والإمامة والسياسة لابن قتيبة والموطأ لمالك بن أنس والبيان والتبيين للجاحظ وكذلك كتب ابن المقفع والغزالي والطبري وأبي حيان التوحيدي والبلاذري والواقدي والمسعودي وصولا إلى ابن خلدون ثم إلى عصر النهضة الإسلامية وأعلامها الأفذاذ.

لقد أضاف الفكر الإسلامي الكثير لمفهوم الدولة مثلما أضاف أبو نصر الفارابي في مدينته الفاضلة ضرورة العقيدة الدينية وأهمية الفنون والثقافات ومثلما أضاف المعتزلة فكرة الضرورة في التجمع الإنساني بالإضافة إلى قاعدة الأسرة

والعصيبة والقوة الجبرية، ونعلم أن جون جاك روسو الفيلسوف الفرنسي أخذ الكثير من فكر المعتزلة في كتابه (العقد الاجتماعي الجزء الأول الفصل السادس).

هكذا إذن نفند نظرية الغرب القائلتة بأن الدولة غربية في أساسها وأنها علمانية أو لا تكون، إذ يمكن أن تنبثق الدولة الحديثة بقوانينها وتنظيماتها ودساتيرها من أصلها القرآني مع الاجتهاد العقلي المستنير الذي يلائم بينها وبين مقتضيات العصر.

مثل واحد مايزال حيا شاهدا إلى اليوم. في اسبانيا ماتزال محكمة المياه توزع الري بالعدل والقسطاس على الفلاحين وهي محكمة أنشأت في الأندلس منذ نحو ألف عام على قواعد الشريعة الإسلامية: عمرت وعاشت لأنها انبثقت من القرآن والسنة وتلاءمت مع مجتمعها على مر القرون رغم أن العاملين بها مسيحيون.

حلم ماضي أو مشروع مستقبل

٦ - يقولون إن وحدتكم الإسلامية حلم ماضي.

هذه هي الحجة السادسة.

ونحن نقول: إنَّ الوحدة الإسلامية مشروع مستقبلي حي قابل للتحقيق ولكنه مستند إلى ماضيه. فمن لا ماضي له لا مستقبل له.

الأمة الأوروبية مجموعة شعوب لا يربط بينها رابط اللغة

والتاريخ، بل تفرق بينها حروب كثيرة دموية، استطاعت اليوم أن تنتصر على مايفرقها لتجتمع حول مايوحدها.

الأمة الأمريكية كانت لمدة قرنين شعوبا وقبائل متناحرة متحاربة، ينخرها الميز العنصري وهي مشتتة إلى ألوان وثقافات متباينة متضادة، واستطاعت أن تحقق وحدتها وتصبح أقوى أمة تكنولوجية وزراعية وعسكرية على الأرض، حتى الشعب الصيني استطاع ذلك ولم تكن الشيوعية الصينية مع ماوتسي تنغ إلاّ استحضارا لروح الصين القديمة مثلما قال (أندري مالرو).

ونحن المسلمين في هذا النظام الدولي الجديد؟ من نحن وماذا نزن في العالم؟

نحن خمس سكان المعمورة، نملك ثلث ثروات النفط في العالم ونسيطر استراتيجيا على أهم الممرات البحرية والمعابر القارية؛ لكن مقابل ذلك نحن في أسفل قائمة الشعوب القارئة للكتب ولدينا نسبة ضيئلة من الجامعات المختصة ونستهلك أقل نسبة من الورق (الثقافة والإعلام)، ويمكن أن نتجه للمستقبل بإرادة صماء جديدة لنفرض كياننا ونخدم مصالحنا في عالم نراه اليوم يجتمع إلى تكتلات كبرى لا ترحم. هي كالحوت قدرها أن تبتلع الأسماك الصغيرة الضائعة في المحيط.

جندوا الفلاسفة!

ذات يوم من أيام روما الإمبراطورية الكبرى المسيطرة على نصف الأرض وفي القرن الثالث المسيحي دخل قائد الجيش

الروماني على الإمبراطور جوليانوس ليعلن له عن اقتراب جيوش البربر من أسوار روما مهددين بغزوها. وسأل القائد: «هل أبادر بتعبئة الجنرالات ياسيدي الإمبراطور؟» فأجابه جوليانسو: «لا . . . لا أسرع بتعبئة الفلاسفة».

هذه النادرة التاريخية أوردتها لأخلص للقول إنه كلما أحست أمة من الأمم بالتهديد - وهو حالنا اليوم - بادرت بتعبئة قواها العقلية والفكرية وطاقاتها الحضارية والثقافية. فالإمبراطور جوليانوس أمر بتجنيد أهل العقل أي الفلاسفة لأنهم هم الذين يحيون الهمم ويحركون العزائم ويهندسون الضمائر ويعدون القلوب للمقاومة والنصر.

فالإسلام أحوج مايكون للعقل المتحرر المقتدر، المفكر ضمن إطار أصالته التاريخية والمتجه للمستقبل. حتى نرى الإسلام موحد الكلمة مجتمع الطاقات منسق المواقف متشابه التحليل والتخطيط لاكتساح القرن الحادي والعشرين بإرادة فولاذية.

إننا إذا أرّخنا لبداية التشتت الإسلامي فنحن عائدون به لا محالة للقرن الثالث عشر مسيحي. عندما كان الإسلام سيد البحر الأبيض المتوسط وبدأت جحافل المغول تهدد العالم الإسلامي والقارة الأوروبية في نفس الوقت. كانت الحضارتان الإسلامية والمسيحية تتعايشان بسلام نسبي حول حوض البحر الأبيض. كانت دمشق والإسكندرية والقيروان وقرطبة والقدس وبالرم والبندقية واسطمبول منارات حول الحوض المتوسط،

تتلاقح فيها ثقافتان وتتلاقى حضارتان؛ حتى دقت طبول الغزو المغولي هنا وهناك.

ففي عام ١٢٤٠ وصل باطو قائد المغول على رأس جيشه إلى روسيا واكتسح كياف وأوكرانيا والمجر وحاصرت جيوش المغول مدينة فيانا عام ١٢٤١ . وبعدها بسنوات قليلة تمكن هولاكو قائد المغول من الإطاحة بالخلافة العباسية ودخل بغداد وقتل الخليفة المستظهر بالله وأحرق مكتبة من أغلى وأثرى مكتبات الحضارة الإنسانية. كان ذلك عام ١٢٥٨ .

تجمعوا وتفرقنا

فما الذي وقع عندما تم هذا الكسر في خط التاريخ؟

الذي وقع هو أن أوروبا اتعظت بدرس الهزيمة القاسي وشرعت في لم شتاتها بينما تشرذم العالم الإسلامي إلى دول ومماليك، ودام التشرذم إلى غاية ١٥١٤ عندما بدأت الإمبراطورية العثمانية تجمع ماتشرذم وتحاول التوحيد السياسي للأمة؛ وبدأ الفكر الإسلامي القوي يضعف وينهار إلى أن تحول إلى ثقافة مدح وتأليه للحكام. فضاع نسغه الفكري تحت ركام التوشيات والتوريات والمحسنات حتى اكتفى بالقشور عن اللب واستعاض بالزبد عما ينفع الناس.

«إن اليقظة الإسلامية التي جعلتنا ننهض من سباتنا محتاجة إلى وعي حقيقي وحاذق بكل هذه التهديدات حتى نفتح أعيننا على شمس القرن المقبل، مسلحين بزاد العقل، معتزين

بأصالتنا الإسلامية واعين بمنزلتنا بين أمم الأرض».

على ضوء هذه الأحداث وهذه الأفكار يمكن أن نقرأ حرب الخليج بعد العدوان العراقي الغادر على الكويت وماجناه العالم الإسلامي من آثار تلك الحرب. يمكن أن نقرأ حرب الخليج قراءة بعيدة عن تشنج العواطف وفي معزل من التأثيرات، حتى نجعل من تلك الحرب المزلزلة ايذانا بالصحوة الإسلامية العقلية القادمة.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)** ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧]. صدق الله العظيم.

الفصل الخامس
الشــورى في الإســلام

ويشتمل على :

- التأصيل والانفتاح
- العودة إلى الاصول
- كان الرسول صلى الله عليه وسلم « يقول : أشيروا عليّ »
- الشريعة والشرعية والمشروع
- اقرار الثقافة الشورية
- شرعية الحكم
- أمانة الجيل الراهن

التأصيل والانفتاح

ماتزال نظرية صراع الحضرات التي أعلنها المفكر الامريكي صمويل هنتينجتون[1] منذ أكثر من عامين تثير الأقلام وتسيل الحبر وقد أفردت شخصيا لمناقشتها كتابي الأخير «الإسلام وصراع الحضارات» الصادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر - جزاها الله خيرا - .

ولعل قاريء هذا الكتاب المتواضع فهم أننا لانفند نظرية صراع الحضارات في جوهرها بل نحن بالعكس نعتقد أن المستقبل القريب سيجسد ذلك التقسيم الرائد لخارطة العالم الذي قدمه المؤرخ البريطاني الراحل «أرنولد توينبي» عندما قسم العالم لا إلى مواقع جغرافية بل إلى مناطق حضارية .

وإحقاقا للحق لقد كان سباقا لصمويل هنتينجتون بجيل كامل لكن نظرية توينبي جاءت قبل عصرها فلم يخض فيها الخائضون ولم يجادل المجادلون إنما أثارت موجة من التفكير والتساؤل في المحيط الجامعي والأكاديمي . وبالرغم من أننا نضع قبل هذين الرجلين العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي أشار منذ سبعة قرون إلى أهمية العوامل الثقافية والاجتماعية في

(١) صمويل هنتينجتون هو استاذ العلوم السياسية ومدير مؤسسة جون أولين الاستراتيجية بجامعة هرفارد نشر محاضرة بعنوان صدام الحضارات في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية يونيو ١٩٩٣ وهي تنادي بنظرية دخول العالم مرحلة حروب الحضارات والأديان عوضا عن حروب الأيديولوجيات أو المصالح . وقد استضافته مهرجانات الجنادرية في المملكة العربية السعودية هذا العام ١٩٩٦ ليتحدث في احد محاور المهرجان «الإسلام والغرب» .

تكوين الصراعات وتوجيهها، فنحن نؤمن بأن لكل عصر من عصور التاريخ نواميس خاصة به تميزه وتحدد ملامح الفكر المعبر عنه والناطق باسمه؛ ونحن حينما نقبل بأصل نظرية صراع الحضارات فإننا نعترض على توظيفها بالشكل الذي قام به هنتينجون لخدمة أهداف أعداء الحضارة الإسلامية الذين وضعوا الإسلام مكان الشيوعية لتبرير العدوان بعد أن فقد حلف شمال الاطلسي مبرر وجوده على أثر انتهاء الحرب الباردة.

وإن قبولنا لأصل النظرية يعني اقتناعنا بأن المصير الأفضل في القرن الحادي والعشرين القادم سيكون للحضارة الأصلب عودا والأقوى أسسا والأثبت على الفضائل أي للحضارة الأعلى لا من حيث القوة المادية بل من حيث القوة الروحية ولا من حيث تكديس السلاح بل من حيث تكديس المعرفة.

فالامبراطوريات التي تهاوت واندثرت خلال القرن العشرين كانت الأقوى تسليحا وتكنولوجيا ومناطق نفوذ مثل الامبراطورية الروسية القيصرية ومن بعدها السوفيتية الشيوعية وكذلك الامبراطورية الفرنسية والبريطانية «بمعنى فقدان الامتداد الاستعماري الاخطبوطي وانحسار التأثير الثقافي والاقتصادي الدولي».

فإذا أقررنا بهذه الحقيقة الثابتة وأرجعناها إلى أصلها القرآني الكريم الذي يقول فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وإنه أراد

أن يمن على الذين استضعفوا في الإرض بقوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥] كل ذلك في آيات مبثوثة في الكتاب المجيد تفيد بأن الأمة الأعلى التي لاتهن ولاتحزن إنما هي تلك التي استضعفها المستكبرون وساموها بثمن بخس فاستنفرت طاقاتها واستجمعت قواها واستحضرت روحها الخفي لتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

فهل استوفينا تلك الشروط الربانية التي لانتبوأ منزلتنا العليا إلا بها؟

كلا بالطبع! فإننا ما نزال نعاني تراكمات حضارية سلبية نتجت عن ليل الاستخراب الطويل «المعبَّر عنه جورا بالاستعمار» وأصبحت معوقات تعطل مسيرة المسلمين نحو التحرر والانعتاق والمشاركة والتقدم.

ولعل على رأس تلك التراكمات تهافت الشعوب المسلمة على تجريب أساليب الحكم المستورة من حضارة الغرب بغير ضوابطها وبدون اسبابها مما جعل أمتنا وعلى مستوى آنظمة الحكم فيها تتخبط في وصفات سياسية متعاقبة وأحيانا متناقضة فتضع لها المدارس وتسن لها المناهج لكنها تبقى نماذج دخيلة مشوهة لا تستجيب لمجتمعاتنا ولا تفى بحاجياتنا ولا تنبع من تراثنا السياسي الأصيل الحافل.

ويكفى إلقاء نظرة سريعة على الأربعة عشر قرنا من تاريخ

الإسلام لنتأكد أنه على أثر انقضاء عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم باستشهاد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي سنة ٦٦١م، جرّب المسلمون كل أشكال الحكم المتوارث من القبائل العربية والمستلهم من الحضارة الفارسية والوارد من الحضارة البيز نطية أو الذي كان معروفا في الأمصار المفتوحة كالنظام الإمبراطوري في جنوب فرنسا والنظام الملكيب المسيحي الأصولي في الأندلس واكتسب المسلمون عندما سادوا أجزاء واسعة من الارض قدرة عجيبة على هضم النماذج الأعجمية في تنظيم الدولة وإقرار الإدارة وجمع الخراج و إقامة الجيوش وتوزيع المياه وبناء المدن وتقنين الأسواق وتشييد المؤسسات العلمية والصحية وانتشر الإسلام بفضل رسالته أولا ثم بفضل الاستعداد الفطري لتقبل تجارب الأمم الأخري وهضمها وتبنيها بعد أسْلَمَتها . وما أحوج حضارة الإسلام اليوم لهذه الميزة بحيث إنهاَ لن تبلغ أوجها بكبرياء وثقة حتى تعطي للحضارات المتواجدة خلاصة تجاربها وتأخذ منها مايفيدها ومايختصر المسافة بينها وبين المستقبل ؛ ومايصلح في العلم والتكنولوجيا والرياضيات والصناعة والطب والهندسة يصلح في مناهج الحكم . ففي كل هذه المجالات الحيوية وقفت حضارة الإسلام على قاعدة راسخة وأمدت الإنسانية على مدى قرون بثروات معرفية وعلوم تطبيقية ماتزال إلى اليوم تحمل أسماءها العربية وأسماء أعلامها المسلمين أمثال الخوارزمي وابن سينا والبيروني وغيرهم من المنارات الفكرية الرائدة .

العودة إلى الاصول

إن سبيلنا إلى عودة الروح الحضارية لدار الإسلام هي السبيل المزدوجة :

١ - رجوع إلى الأصول لإعادة قراءة أمجادنا بصورة توظف الماضي لخدمة الحاضر والمستقبل .

٢ - انفتاح ذكي على حضارات سوانا مع حرص على التأثر والتأثير دون عقد لا في الأخذ ولا في العطاء .

ولكن الواقع في بلاد الإسلام وخاصة في عالمنا العربي يفند ويعاكس ويرفض هذه السبل فتجد أن الصفوة انقسمت إلى مغالين في النهج الأول وإلى مغالين في النهج الثاني ولن تجد إلاّ قلة واعية متهدية إلى الجمع بين النهجين .

فالراجعون إلى الأصول يمكن آن نطلق عليهم نعت الأصوليين أغرق أغلبهم في استنطاق مصادر الشريعة وتفسير مقاصدها لكنهم لم يمسكوا بخيوط الواقع الراهن المتغير باستمرار وغير الخاضع أساسا إلى إرادتنا أو مصالحنا . أما المنفتحون على حضارات الغرب فهم أضل سبيلا لأن معظمهم لم يتجاوز مرحلة الانبهار بما يرى ومرحلة الاستصغار لما حوله وهم ينطلقون من مركبات نفسية تدفعهم لاحتقار ذواتهم وتأليه غيرهم وهم يطلقون على آنفسهم مادبجوه من ألقاب مثل علمانيين وعصرانيين ومستنيرين وأحباء السلام الخ .

في حين أن مستقبل الإسلام كونه حضارة رهين الاعتدال

في النهجين : نهج التأصل ونهج الاستعداد لتقبل أزكي مافي الحضارات الأخرى معتبرين مثل الإمام على رضي الله عنه حين قال : **(الناس صنفان : أخ لك في الدين ونظير لك في الخلق)** فالذي يجمعني بأخي المسلم هو الأصول المشتركة والحاضر المؤلم والمصير المؤمّل أمَّا الذي يجمعني بنظيري الإنسان فهو الاشتراك في الأرض والإنسانية وضرورة التحاور في مشكلات التلوث والتبادل التجاري وتنسيق جهود البحث العلمي والطبي وحتمية تحاور الثقافات والآداب والفنون .

ثم إنك إذا تأملت كل مراحل التميز الإسلامي في التاريخ لاكتشفت أن الحضارة الإسلامية كسبت من اعتماد النهجين ما لم تكسبه باعتماد أحدهما . فكانت قوتها مرتبطة بمدى الحريات الفكرية المتاحة وكان ضعفها وثيق الصلة بمناخ الكبت والقمع والتضييق .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: « أشيروا عليّ»

رأينا أهمية التوافق بين الإسلام وعصره من حيث تقبّل أزكى ماعند غيرنا إلى جانب عملية التأهيل مما يدعو إلى تغيير في الفكر وإلى تغيير في الخطاب؛ فالخطاب الإسلامي وخاصة لدى الشباب ماتزال تدفعه عواطف وردود فعل أكثر مما يضبطه عقل أو تسيره غايات فنلاحظ أن المصطلحات تختلط والسبل تتشعب وتضيع في متاهات الجدل . ولنأخذ مثال علاقة السياسة بالدين كمثل لتوضيح قضية الحريات في الإسلام واسقاطها على عصرنا الراهن .

وإني لمعايشتي لقضايا الهوية في بعض بلاد العالم المسلمة عربية أو أوروبية تبين لي أن إحدى عقبات النهج الإسلامي المعاصر هي تلك الحيرة المشروعة لدى شرائح واسعة من المسلمين بإزاء موقف الفقه الإسلامي الحديث من الحريات بما في ذلك مايعرف بالديمقراطية ومايهم التداول السلمي المدني على السلطة وضمان حقوق الإنسان وتقنيات اشراك المواطن في سن الإختيارات الكبرى التي تلزمه وتؤثر على حياته وتحدد مصير أبنائه من بعده.

وهذه الحيرة مشروعة وطالما قرأتها في عيون وسلوك الإسلاميين ذاتهم لأننا وجدنا أنفسنا منذ انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية واندلاع حربي الخليج الأولى والثانية واستطالة عمر الحرب الأهلية الأفغانية وفساد التجربة السودانية وتنامي العنف المضاد في كثير من بلدان العرب والمسلمين وجدنا أنفسنا في موقف التردد أمام القبول بهذه الهزات العنيفة وكأنها قدر للإسلام وقضاء للمسلمين. ذلك أن الفقه السياسي الإسلامي لم يساير التحولات الحضارية الكبرى التي عصفت بالعالم ولم يتابع تشكل الخارطة السياسية والثقافية والاجتماعية بما يلزم من توضيح وتفسير وترشيد بل لم يوفق ذلك الفقه المعاصر في إيجاد لغة يسيرة نافذة لمخاطبة هذا الجيل وحتى في حالة توفيقه كما هو الشأن لدى الشيخين الفاضلين محمد الغزالي - رحمه الله - ويوسف القرضاوي وكوكبة متميزة من العلماء والدعاة والمفكرين، فإن جهدهم قد ظل مقصورا على المنابر المحدودة

ولم تؤسس الجسور بينهم وبين المجتمعات المسلمة كما هو مطلوب بفضل قنوات التربية والإعلام الواسع وسن التشريعات جزاهم الله عنا خيرا على صبرهم ومثابرتهم وجهادهم في زمن صعب وضد التيار الجارف، ورحم الله الشيخ الغزالى وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وفوق تلك الحيرة تجد حيرة أكبر في نفوس أبناء جيلنا وهم يواجهون مناخا عالميا من العداء الصليبي الصهيوني بلغ أشده في المثلث الحساس من الأمة (فلسطين - البوسنة - الشيشان) حتى انتهى إلى ارتكاب جرائم إبادة جماعية للمسلمين مثلما حصل في سرايفو وبيهاش وغروزني ويجرى كل يوم بالتقسيط في فلسطين وجنوب لبنان؛ عشرات الآلاف من الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى يسقطون ضحايا المخطط الرهيب مخطط الاستئصال الجذري للمسلمين أينما كانوا وذلك في صمت عالمي مجرم وفي ضجيج إعلامي مخادع يزيف الحقائق ويوزع الأدوار ويمرر الإبادة: غروزني وحدها مسحت من فوق سطح الأرض كما قال مراسل القناة الثانية للتلفزيون الفرنسي يوم ١٤ فبراير ١٩٩٥م: ثلاثون ألف ضحية مسلمة من الشيشان خلال ستة أسابيع في مذبحة مروعة حيث ألقيت الجثث في الشوارع تنهشها الكلاب والكواسر مثلما شهد بذلك مراسل إذاعة البي بي سي في تقريره ليوم ١٦ فبراير ١٩٩٥م ولا أحد يرى ولا أحد يسمع في العواصم التي تصرخ ضمائرها عندما يموت كلب أو يعتدى على قط، وفي البوسنة نفس سيناريو

الإبادة والاغتصاب والتهجير وفي فلسطين تكرر المشاهد تحت شعار: «ملاحقة الإرهاب ومطاردة أعداء السلام».

هذه المظالم الحديثة تهز ضمائر أجيال المسلمين وتطرح عليها أسئلة جوهرية: كيف نوقف مسلسل الجور المنظم والإبادة العالمية؟ كيف نلائم بين إسلامنا وبين دخولنا لحركة التاريخ؟ كيف نبلور فقه المقاصد المتجدد بأدوات هذه العصر وبوسائله الاتصالية الحديثة دون النيل من الثوابت؟

وعلى رأس كل هذه الأسئلة المطروحة نضع قضية القضايا الإسلامية في هذا العصر: كيف نحل معضلة الحكم؟

إن حضارة الإسلام لن تصمد في معركة المصير القادمة إلا متى توافقت مواقف الراعي مع مواقف الرعية ولن يتاح ذلك الوافق المنشود إلاّ إذا وضعنا «آلية» أو (ميكانزم) لتفعيل مبدأ الشورى. فالشورى هي إحدى صفات المؤمن وشرط من شروط إيمانه حسب الآية الكريمة: ﴿ **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)** ﴾ [الشورى: ٣٧ - ٣٩]

كما أذن الله تعالى أن تكون صفة من صفات الرسول القدوة صلى الله عليه وسلم: ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وإن الشورى التي تكرست في سقيفة بني ساعدة لانتخاب الخليفة الأول لم تبدأ في السقيفة بل تجسدت في السنة النبوية الكريمة وبعد أن أعلنها القرآن. فقد جمع الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم صحابته المهاجرين والأنصار ليعرض عليهم مخطط غزوة بدر قائلا: **«أشيروا عليّ أيها الناس»** وفعلا أشار عليه أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ رضي الله عنهم كل بما رآه صالحا للمسلمين ولم يجد أصحابه البدريون غضاضة في الإشارة وقد أصابت الدكتورة الفاضلة بنت الشاطئ عندما سمت هذا الموقف النبوي الجليل **بأول مجلس شورى في الإسلام**.

فنحن مدعوون في هذا الأمر الحيوي إلى أن نعتمد النهجين اللذين عرضتهما أي توظيف أمجادنا والاعتبار بتجارب الأمم الأخرى. وياحبذا لو تتحقق الشورى بمحتواها القرآني الكريم عن طريق الحوار مع كافة شرائح الشعوب وبأية صورة تختارها هذه الشعوب وأولو الأمر منها لأن مواطن الزلل تندر بقدر مايكون اجماع المسلمين حاصلا ورأيهم مسموعا وصوتهم واضحا كما أن مواطن الزلل تكثر بقدر مايكون الرأي آحادي المصدر وبقدر مايكون القرار متفردا حتي ولو طلبت له الأبواق المنافقة أو سكت عنه ضمير الشعوب خوفا ورهبة.

ثم انك ترى مع الأسف أن أمما غير مسلمة هي التي اعتمدت منهج الشورى فرجعت واحتكمت إلى مايجول بالخواطر من أفكار تحث وتحفز على الافصاح عنها ثم يكون

قرار ولي الأمر مجرد ترجمان لتيار غالب إذا لم يكن تعبيرا عن الاجماع، فتتحصن المجتمعات غير المسلمة من العثرات ونقع فيها نحن، ولعل آخر نكبات المسلمين التي غيرت المعادلات وقلبت الموازين هي حرب الخليج الثانية التي يبدو أنها اندلعت من شرارة الثاني من أغسطس من عمل فردي ماكان يصل إلى ماوصل إليه لو نصح الناصحون وأشار المستشارون واستمع الرئيس العراقي إلى أصوات الناس ذوي الحكمة والبصيرة.

وما هذا إلا مثل زلزل العالم الإسلامي وجاء أوان تجاوزه طبعا لكن التجاوز لا يعني عدم استخلاص العبرة والاستفادة من الدرس.

الشريعة والشرعية والمشروع

إننا لو القينا نظرة ناقدة على تذبذب المسألة السياسية في الإسلام اليوم لدى الصفوة المثقفة لأدركنا أن سببا رئيسا يكمن وراء ذلك التذبذب وهو نقل الثقافة الإسلامية لكثير من قوالب الفكر السياسي الغربي وزرعها في الواقع المسلم دون إعمال رأي وإجراء نقد؛ فالمصطلحات المستعملة لدينا مصطلحات منقولة من اللاتينية أو الاغريقية أخذناها بعلاتها وكان ذلك على حساب اصولنا الفكرية السياسية الإسلامية التي تملك أدواتها ومصطلحاتها وهو الأمر الذي حرَّف سلوكنا تحريفا خطيرا ووجه إعلامنا وهندس تربيتنا على أسس غير أسسنا.

وقد ضرب استاذنا فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي على ذلك بعض الامثلة مثل الفرز المزيف الذي قمنا به بين الشريعة والعقيدة أو بين العبادات والمعاملات وهو فرز مسيحي اجريناه ظلما وجورا على الإسلام. اضف الى ذلك مصطلح الاغلبية والاقلية الذي نقلناه من الفلسفة اليونانية والحياة السياسية الغربية، كما تولَّد عن ذلك التقليد تشويه في التعامل السياسي لدى بعض مجتمعاتنا حيث تستعمل تلك المصطلحات استعمالات ايديولوجية موجهة لادخل لثقافتنا الاصلية فيها، وكان اجدر بنا أن ننطلق من تراثنا لإعادة تشكيل واقعنا ومستقبلنا وثقافتنا.

وإذا تابعنا بعد ذلك سلوك الخلفاء والملوك المسلمين

وجدنا أن أبقاهم في الذاكرة الإسلامية وأقدر على الرسوخ في وجدان المسلمين تلك الكوكبة المصطفاة من اصحاب الأمر الذين كانوا اصحاب مشورة فلم يستبدوا برأي ولم يستعينوا بسوط ولم يأخذوا الناس بجريرة الفكر اسوة بسيد الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنك إذا أردت أن تؤرخ بالضبط لبداية هزيمة المسلمين الحضارية فلتبدأ من أول يد مسلمة ارتفعت بالسيف لتهوي على عنق مفكر حر مهما كانت حجة المظلمة ومهما كانت ظروف الظلم.

اقرار الثقافة الشورية

ولكن الشورى تظل مبدأ نظريا وحلما إذا افتقدت أدوات تجسيدها وتكريسها ولعل صندوق الانتخاب وبطاقة الاقتراع هما الطريق الأوضح والأسلم لنيل الشرعية ويتطلب ذلك إقرار الثقافة الشورية «المسماة بالديمقراطية في الغرب» منذ الحضانة فالمدرسة فالمعهد فالجامعة لكي نحل قضايا الشرعية التي نتجت عن فقدانها صراعات داخلية عنيفة تراوحت بين الحرب الاهلية في الجزائر الى التأزم المدني في مصر إلى استقرار الخراب والدمار في العراق إلى التقاتل الدموي في افغانستان مما جر العالم العربي - وهو جزء من الأمة - إلى وضع متردٍ من التبعية والاستسلام دون الرجوع الى ضمير المواطن العربي المتوهج المتحفز.

وهنا يحسن التذكير بما قاله الشيخ محمد الغزالي في كتاب **«الغزو الثقافي يمتد في فراغنا»**: «إنني أؤمن بالشورى وأزدري

الاستبداد السياسي من أعماق قلبي وأرد اليه اغلب هزائم أمتنا خلال تاريخها وأرمق الديمقراطية الغربية فأحسد اصحابها على مناقشة الآراء بحرية وعلى استكانة الحكام للحق وعلى اعتزاز الافراد بكرامتهم وكنت أهمس إلى نفسي: أما يجيء يوم يظفر فيه المسلمون بمثل هذه النعمة؟».

وفي نفس السياق يضيف الشيخ الغزالي مستدركا أن الديمقراطية الغربية امتدت في الفراغ الذي صنعه المسلمون إذ إنهم لم يعطوا الشورى محتواها الحقيقي وما عبرنا عنه نحن بالأدوات أو الميكانزم أي كيفية التطبيق مما يتيح التوفيق بين حرية المسلمين والتزام أولي الأمر وهو ما يؤدي نفس وظيفة الديمقراطية بمعناها اليوناني المؤسس مضافا اليها كل تراث الإسلام السياسي المستند إلى نص ثابت واجتهادات تلائم بين العقيدة والزمن الذي له نواميس.

نعتقد أن قضية كبرى كهذه لو حلت لكفت المسلمين شر قتال ضار نراه مستشريا كالنار في الهشيم ومصيبا بالعدوى كل بلاد المسلمين بدرجات مختلفة وقد بدأ يفتح أبواب حملات صليبية صهيونية جديدة لم تتورع عن إعلان استعدادها للتدخل العسكري في بلاد الإسلام بدعوى «استئصال التطرف» أو «اجتثاث الارهاب» بينما المقصود هو الإسلام كحضارة لها قيم روحية ولأمته طموحات مشروعة.

وجاء خطاب الأمين العام للحلف الاطلسي «ويلي كلايس» يوم ٨ يناير ١٩٩٥م شبيها بدعوة البابا يوربان الثاني في مدينة

كليرمون الفرنسية عام ١٠٩٥ أي منذ تسعة قرون بالضبط والتي دعا فيها المسيحيين لشن الحروب الصليبية ضد الإسلام وتعلل ويلي كلايس بالتطرف كما تعلل البابا يوربان الثاني باسترجاع أكفان السيد المسيح .

شرعية الحاكم

إن القضية الكبرى هي قضية شرعية الحاكم وقبول المحكوم لهذه الشرعية مما يسمح بتعبئة شعوبنا في معارك التنمية وتحديات التقدم في مناخ من الوفاق والتراضي والتداول والتشاور .

ولن يكون للشرعية معنى إذا خرجت عن دائرة الشريعة بمفهومها المجتهد الذي يأتي نتيجة الحوار الواعي المتعمق في شؤون الدين والدنيا فتعود المجتمعات المسلمة إلى اصالتها مستلهمة من القرآن والسنة فقه الأولويات ما به تستقل هويتها وينتعش كبرياؤها ؛ وذلك موكول لاختيار أساسي تقره الشريعة ولايختلف فيه مسلمان وهو اختيار الأمة الواحدة المتكافلة المتضامنة المتناصرة مما يقربنا من الأمل المنشود والرجاء المنتظر ألا وهو تحقيق نظام الخلافة لا مثلما كانت في الماضي بل من منظور استقلال الدول المسلمة وسيادتها مع عقد يجمع حبّاتها ويحل نزاعاتها ويذود عن حماها ويمثلها في مجلس الأمن وتكون له الكلمة العليا باسم أمة الإسلام بازاء الصديق والعدو ؛ وللخلافة طريق صعبة وشائكة تؤدي للغاية ولكنها

ليست طريقا مستحيلة أو مقطوعة ولا نرى سواها طريقا في هذا العالم المتكون من كتل قوية عتيدة ذات مصالح وأطماع تتآكل فيما بينها لكنها لاتجتمع إلا ضد الإسلام لتأكله وتتقاسم أوطانه وطاقاته وخيراته إتماما لنظرية «الرجل المريض» التي أشاعتها الصهيونية منذ القرن التاسع عشر؛ نعتقد مخلصين أن مجال الفكر السياسي الإسلامي بالرغم من الزخم الهائل من الندوات والمنشورات لم ينل حظه من الدرس والنقد والحوار وبخاصة داخل الجامعات بعيدا عن التشنج والمغالاة والتصادم. ولايكون البدء في هذا العمل الصالح إلا بتضافر جهود المعتدلين واصحاب الوسطية من ذوي الأمر وذوى الفكر لما فيه خير الأمة، ولنبدأ بمصطلحات الشرعية والشورى والحرية والشريعة والقانون ننفض عنها ما تكدس من معان دخيلة لنعيد اليها مدلولاتها الإسلامية في السياسة والثقافة والتربية والإعلام.

أمانة الجيل الراهن

وصلنا من خلال الفصول الماضية إلى أهمية تشكل الدول الإسلامية في هيكل موحد دون التفريط في سيادتها وخصوصيتها شأنها في ذلك شأن سائر أمم المعمورة، ونحن نملك في تراثنا ذلك الهيكل وجربناه فصح وتخيلنا عنه فضعفنا وهو نظام الخلافة الذي يستمد محتواه الشرعي من معنى الاستخلاف القرآني المعروف وإقامة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم درعا للأمة في مراحل نشأتها وعزتها؛ ولعلنا إذا

طوعنا منظمة المؤتمر الإسلامي وأعدنا تركيبها وجعلناها مؤتمرا عظيما للشعوب كما يدل عنوانها فنحن سنختصر طريقنا نحو القوة والمنعة والتأثير ونضع مصالحنا ومصيرنا في مأمن أمين بعيدا عن الكيد الدولي الذي يخطط لنا يوميا ونرى آثاره كل لحظة وسوف يأتي علينا دولة دولة وشعبا شعبا ما دمنا متفرقين مستضعفين.

إن تلك هي أمانة الجيل المسلم الراهن، مثلما كانت أمانة جيلنا الإعداد التربوي والفكري لهذا العمل التاريخي مما ساعد على ترشيد الصحوة الثقافية الإسلامية ووضعها على نهج الاعتدال والسماحة والروية.

ونحن نرى أن أغلب العوامل متوافرة اليوم للبدء في حوار جدي حول طرق التكامل والتضامن والتآزر استعدادا لوحدة المصير.

إن الاختلاف بين الشعوب المسلمة لايمنع من الائتلاف. فأركان الاجتماع في منظومة كبرى متوافرة قوية ثابتة من دين سمح ولغات متقاربة وعادات متجاورة وتراث روحي وحيد طاهر وتكامل اقتصادي وزراعي وصناعي مثالي لم يتح لمجموعات أخرى، إلى جانب الاشتراك في الآمال والتعرض المشترك إلى نفس المؤامرات الدولية وهو ما يصنع الأمة حضاريا.

ولعل الصفوة من العلماء والمثقفين المسلمين يتحاربون بروح عالية واخلاق سامية لتحديد الخطوات المؤدية لهذه الغاية

العظمى كأن ينطلقوا من نواة منظمة المؤتمر الإسلامي أو سواها ليبدأوا رحلة طويلة وشاقة لا منجاة لأجيالنا القادمة إلا بقطع مسافتها وضبط أولوياتها وقبول التزاماتها .

إن فكرة الأمة الواحدة الواردة في القرآن المجيد هي الفكرة المؤسسة للخلافة ولا يمكن أن نصون حضارتنا أو نحمي كياننا أو ننفذ حقوقنا إلا في كنف تلك الفكرة الرائدة الخالدة . ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

إن تشكل الأمة الإسلامية البطيء الواثق منذ فجر الإسلام شبيه جدا بانبثاق عين ماء صافية زلال عندما كان الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم في صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ [التوبة : ٤٠] ثم تحول الينبوع إلى جدول مع الهجرة النبوية المؤسسة للدولة وتدفق الجدول ليصبح نهرا عارما مع الفتوحات الاولى وانتهى بعد انهزام الحملات الصليبية وفتح القسطنطينية الى بحر عظيم ، ولم تكن العرب قبل الإسلام إلا قبائل ذات عصبية وجاهلية .

فالمسار التاريخي الطبيعي المنطقي أن نسعى من الشتات إلى جمع الشمل ومن الفرد الى العائلة الى القبيلة الى الدولة الى الأمة ؛ وهذا المسار ليس مقصورا على المسلمين باسم العقيدة لكنه مسار الأمة الصينية والأمة الأوربية والأمة الامريكية والأمة الروسية ، شعوب عديدة تنتمي الى مختلف الحضارات وتتكلم مئات اللغات وتضم متباين الأعراق والأديان استطاعت بارادة سياسية لا بإرادة عقيدية أن تصبح أمما من لا شيء أحيانا وأن

تحتل في عصرنا مكانتها في تحديد مصير العالم بما لها من عدد وعدة وإسهام في الحضارة الكونية المرتكزة على سيادة المعرفة والابداع.

ويقع الإسلام في قلب هذه الأمم، فجاءت نهضته في القرن الماضي بفضل رؤية المصلحين المسلمين الذين اكتشفوا أن القوة تكمن في التكتل والاجتماع وتوحيد الجهود وتعلقت همة آبائنا المؤسسين بعقيدة وحدة الأمة مما أثار الحملة الصليبية التاسعة «المسماة بالاستعمار» كمحاولة لإطفاء نور الله وتفكيك العروة الوثقى وإلحاق الهزيمة الحضارية بالمسلمين. وصنع لنا الاستخراب العالمي أدوات القوميات ليأتي بنياننا من القواعد فيخر علينا السقف وعندما لم يفلح خطط لتخريبنا من داخل أنفسنا بغرس أنموذجه الثقافي في بعض عقول أبنائنا ممن تحملوا اعباء التحرير وتبوأوا منازل القرار فأسقطوا علينا قوالب فكرية وشرائع قانونية ومناهج سياسية لم تخلق لنا أصلا بل وفي كثير من مراحل التاريخ خلقت ضدنا.

أمثلة هذه المهازل القانونية تلك المجلات الجنائية والجزائية المطبقة إلى اليوم في بعض الدول العربية وكانت الادارة الاستعمارية الاستخرابية - بريطانية أو فرنسية - سنتها في عقود الاحتلال المباشر أساسا لقمع حركات المقاومة الوطنية فتبنتها الحكومات الوطنية بعد الاستقلال وواصلت تطبيق فصولها بينما الاستعمار غادر البلاد من حوالي نصف قرن.

وكان حال هذه المجتمعات من استقلال دولها الى اليوم حال مريض اخطأ اطباؤه - أي قادته - في تشخيص علته فأخطأوا علاجه؛ وما الهزات العنيفة التي تصيب هذه الشعوب إلا نتيجة طبيعية ومحتومة للتشخيص الغلط والعلاج الغلط.

بعد أن رأينا أهمية الشرعية في كنف الشريعة لابد أن نشير إلى ضرورة المشروع الحضاري لضمان تعبئة قوى الأمة في انجاز عمل عظيم صالح تعود به الى سالف اشعاعها وسابق ريادتها، وهذا المشروع الذي ينطلق حتما من روح الشريعة ويرتكز على أسس الشرعية لابد أن يكون نتاج العقول الحرة المبدعة في كل مجالات المعرفة والثقافة حيث لا قيد على العقل إلا ما يفرضه عليه أصل الكلمة في الحضارة العربية الإسلامية من حيث هو عقل أي خاضع لضوابط تعقله من الزيغ والفساد والشر والانحراف وتتسع هذه الحرية المبدعة لتشمل في كنفها الفكر السياسي والآداب والفنون والعلوم الانسانية والعلوم الطبيعية والبحث الجامعي واكتساح آفاق جديدة في التربية والتعليم والإعلام.

والمشروع يمكن أن يكون عاما لمجموع الأمة الموحدة المؤمنة ويمكن أن يكون اقليميا على صعيد المغرب الإسلامي أو الخليج أو الشام أو بلاد النيل أو أندونيسيا أو افريقيا المسلمة أو البلقان أو القوقاز كما يمكن أن ينفرد به شعب من الشعوب الإسلامية مثلما ينفرد جدول رقراق يصب في النهر الحي الذي ينتهي بدوره الى البحر العذب الفرات.

هذه هي الأسس الثلاث لعملية إعادة الحضارة الإسلامية الى الدورة الانسانية في المستقبل: الشريعة والشرعية والمشروع وهي قواعد وركائز ترجع الى نفس المصدر اللغوي العربي: ش ر ع أي شق طريقا وانتهج سبيلا فعسى الله أن يجعله طريقا مستقيما وسبيلا سويا إنه العزيز الحكيم.

الفصل السادس

قضايا الإسلام والقانون الدولي

ويشتمل على :

- المسلمون ضحايا القانون الدولى
- هل يخطط القانون الدولى لالغائنا من التاريخ
- نموذج مشروع حضارى مجهض: المصلح الوزير خير الدين التونسى
- اقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك

قضايا الإسلام والقانون الدولي

حاولنا في بعض مقالاتنا الصحفية المنشورة وانطلاقا من رؤية الدكتور محمد جابر الانصاري أن نتعرف على احد اسباب تخلف المسلمين ووضعنا على موضع الكسر الذي حصل في الكيان التربوي حيث حطم جيل التحرير جامعاتنا العريقة التي أشع منها الإسلام وعوضها بجامعات ظن أنها عصرية وأنها تفتح أمام شعوبنا سبل النهضة والتنمية والقوة والاستقلال فإذا بنا نفقد الازهر والزيتونة والقرويين ونضيع ما تمثله هذه الجامعات الحضارية من كنوز ونتشبث بأهداب تعليم جامعي أروبي اعتمد في فلسفته ومناهجه على الحضارة المسيحية وكان نتيجة تسلسل حضاري ونفسي واجتماعي وثقافي مسيحي اصلا حتى ولو تقنع بقناع العلمانية أو الحياد.

ونعتني في هذا الفصل بذلك الكسر الآخر الذي حصل في مجتمعاتنا على صعيد القانون المنظم للمجتمع وللأسرة التي هي النواة الأولى والخلية الحية لأي شعب؛ فمثلما وقع للجامعات الأصلية، وقع للفقه الأصيل الذي يسن التشريعات لاستقلالاتها المنقوصة في الخمسينيات كان أحرى بالصفوة المسلمة أن تصلح من شأن القوانين الشرعية لا أن تلغيها وكان أجدر بمن قاوم الاستعمار العسكري والثقافي أن لا يقبل بحلول الاستعمار القانوني متمثلا في المسخ العميق الكامل الذي طرأ على حياتنا الاجتماعية باحلال تشريعات مستوردة لعلها تصلح في اروبا ولكنها تظل دخيلة مشلة معوقة في مجتمعاتنا المسلمة.

لقد زلزلت بعض النخب الوطنية مجتمعاتها بدعوى أن المرأة كانت تعاني بعض الظلم - وهذا صحيح - ولكن ذلك كان يدعو للاصلاح والتطوير وتطويع القوانين مع روح العصر ومقتضيات التغير لاطرد السنن المسلمة من المجتمعات المسلمة وتعويضها بقوانين سويسرا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا.

صحيح أن بعض المظالم كانت مسلطة على المرأة ولكن علاجها لايكون بتسليط المظالم على الرجال حتى خلقت في بعض مجتمعاتنا بين الجنسين حدة ما أنزل الله بها من سلطان وتحولت مؤسسة الزواج من المفهوم القرآني المنادي بالمودة والرحمة الى مؤسسة «بزنس» أو شركة استثمار بين صاحبي رأس مال؛ وبدلا من أن نرى الفقهاء والحكماء من أهله وأهلها يحلون ما يطرأ بين الزوجين اصبحنا لانرى إلا المحامين وحكام التحقيق كلٌّ يزايد وكلٌّ يساوم وينتهي الأمر بحل الشركة وإعلان إفلاسها ورمي الأولاد في الشوارع والمرأة المسكينة التي اعتقدت أنها نالت حقوقها وتم إنصافها تجد نفسها في مهب الريح بعد أن توصد الأبواب في وجهها تتقاذفها «الباصات» من البيت إلى الادارة وتلتقطها الأيدي المتربصة لتصنع منها فريسة سهلة للضياع والبؤس والانحراف.

ويقف المجتمع وتقف الاسرة في حيرة: ماذا يقدمان لهذه المرأة المطلقة وهي تعتقد أنها حصلت على حقوق ضمنتها القوانين «العلمانية» و«العصرانية» فتجد نفسها وقد رفعت عنها حصانة الزوج والد العيال وخرجت من تحت جناح ذلك الرجل الذي اختارها زوجة وعمَّر بها بيتا وأسس حولها أسرة وضمها في كنفه معززة مكرمة وحافظ عليها وأمنها من خوف، لتصبح

المسكينة «حرة متمتعة بالحرية»!! تنهشها ذئاب من لا يخاف الله من بعض المحامين أو الاصدقاء اصحاب السوء أو اللواتي لهن اقدمية وسبقنها في «التمتع بالحرية» لا حاصن لها ولا كنف ولا جناح ولا دفء الزوج ويمر الزمن عاتيا قاسيا رهيبا ليكبر الاولاد ويهجرونها بل ويطالبونها بالحساب وعندما تنعرج بها طريق الحياة مع الاربعين وتزيغ عنها نظرات العائلة ويهرم ابواها وترفض زوجة شقيقها اقامتها معها ويتزوج الاولاد وتحس هي بالتعب في ركبتيها ويثقل كاهلها بعبء السنوات العجاف ولا من يرحم ولا من يود **«إذ المودة والرحمة موقوفان على الزوج»** حينئذ تفتح عينيها المتعبتين على عالم آخر مخيف من العزلة والهواجس والندم في حين تزوج وخلف عيالا ونسي حتى اسمها ولعن اليوم الذي عرفها فيه.

وتعتقد المسكينة وهي حاصلة على بيت ونفقة أنها نالت حقوقها المضمونة في القوانين المستوردة بعد أن تدفع أجرة المحامين وتسمع في الاذاعة «حصة نسائية» تؤلبها على زوجها ورب بيتها ووالد اطفالها وحامي حماها تحت شعار «المساواة» ورفض القوامة وكل ما في الأمر هو خراب عشها وتدمير سعادتها وانهيار اسرتها.

وجانب الأحوال الشخصية هو احد جوانب الاستعمار التشريعي لأن مصائب القوانين الوضعية لاتعد ولاتحصى، وفي طليعتها مخرب الديار وناشر الدمار مهما كان الشعار.

ومثلما في التعليم، كان اجدر بنا أن ننطلق من شريعتنا نطور تطبيقاتها ونجتهد في سننها ونعيد تصنيف حيثياتها مهتدين بروح السماحة والوسطية لا أن نلقي بتراثنا القانوني الثمين وراء

ظهورنا ونقتبس من قوانين الشعوب الأخرى ما نلبسه لشعوبنا قسرا وقهرا فتختل الموازين وتنفطر الخلايا الاسرية ويتيتم الاولاد ويتحول الزواج الإسلامي المقام على النفوس المطمئنة والسكن إلى الآخر وعلى المودة والرحمة والستر والكفاف الى شركة محدودة الاسم مسجلة في السجل التجاري خاضعة لمنطق الربح والخسارة والفائدة ومستندة الى وثائق كأنها بيع وشراء وتجارة وربا.

تلك حالنا إذ استمر ضلالنا في دروب غير دروبنا وإذا رضينا بالتبعية في تعليمنا وقوانيننا وتقاليدنا ولباسنا وثقافتنا ونحن أمة لها من الحضارة رصيد وأي رصيد. هدانا الله واياكم الى الطريق الرشيد والى الرأي السديد.

المسلمون ضحايا القانون الدولي

سبق أن أجرينا القلم في مسائل الاستقلال والتبعية لدى المسلمين من وجهة القوانين الوضعية المستوردة ونهتم في هذا الفصل بموضوع القانون الدولي ذلك الذي ينظم العلاقات بين الدول وتجمعات الدول والذي يفترض أن تسهر منظمة الامم المتحدة على حفظه وتطبيقه والدفاع عنه.

ان هذا القانون الدولي لم يوضع معنا نحن المسلمين بل وضع ضدنا؛ فقد جهل المسلمون أنفسهم أو تجاهلوا تلك الكنوز التراثية العظمى في القانون الدولي وتشريع العلاقات بين الأمم، وزادهم الاستخراب الاوربي عمىً على عمى حتى اعرضنا بوجوهنا عن خزائن القرآن الكريم والسنة النبوية في

محاور القانون الدولي وهي الخزائن التي تكشّفها الأئمة الاجلاء بالبحث والتحليل ولعل الامام احمد بن حنبل والامام الشافعي ثم داود بن علي الاصبهاني المتوفي بالكوفة سنة ٢٧٠هـ احسن من استخرج درر ما يسمَّى لدينا اليوم بالقانون الدولي اعتمادا على القرآن والسنة ومذاهب المسلمين.

ونحن نرى في هذا العصر جهودا متنوعة جامعية وحكومية واعلامية يقوم بها المثقفون والحقوقيون في اوربا وامريكا واليابان والصين لاعادة صياغة القانون الدولي من مناظير هذه الامم ووفق مصالحها حتى يقع نسيان تلك الصيغة الجائرة التي كانت وليدة مصالح الدول المنتصرة عام ١٩٤٥ في نهاية الحرب الكونية الثانية وقلعة منيعة لحماية نفوذها وتوسيع تجارتها وتأمين ثرواتها وتواصل استغلالها لسواها من الشعوب، وشهدنا في فرنسا بالذات خلال العشرية الاخيرة نجاحات كبرى حققها رجل مثل «برنار كوشنير» الوزير لدى الرئيس السابق لفرنسا «فرنسوا ميتران» المسؤول عن العمل الانساني وهو طبيب مؤسس لجمعية «اطباء بلا حدود» الشهيرة، فقد استطاع هذا المثقف الذكي أن يفرض على ميثاق المنظمة الأممية تحويرات اساسية تتعلق بحق التدخل في النزاعات لأسباب انسانية، ولم تكن عملية «إعادة الأمل» في الصومال إلا تحت غطاء هذه الفكرة استعملتها واشنطن لمحاولة احتواء الحرب الأهلية في الصومال لفائدة المصالح الامريكية لاغير.

والأمثلة عديدة آخرها حق منظمة «السلام الأخضر» في

الاعتراض على التجارب النووية الفرنسية في اغسطس ١٩٩٥ وهي منظمة عالمية لكن اصلها امريكي واسترالي والغريب أن لا أحد رفع مبدأ «سيادة الدولة» أمام هذه المفاهيم الجديدة. وظللنا نحن المسلمين اصحاب اعظم رصيد تراثي في القانون الدولي مبهورين قاعدين لانشارك في حوار ولا يهمنا جدال بينما تحدد أمم العالم مصير الانسانية بمعزل عن حضارة الإسلام الزاخر القوية الغنية.

ورحم الله عصرنا الذهبي العباسي الذي قال عنه احمد امين رحمه الله في كتاب «ضحى الإسلام»:

(كان هذا العصر اكثر عصور الإسلام نشاطا في التشريع واكثر عددا من الفقهاء المجتهدين؛ كل ما كان فيه من وئام وخصام سبب صهر المسائل الفقهية. وكان العلماء احرارا في نزاعاتهم واجتهاداتهم لاتتدخل سلطة فيما بينهم من نزاع، ولاتحجر على حريتهم في الاجتهاد والتفكير.

لهم أن يستنتجوا الاحكام من الكتاب والسنة ما شاءوا، ولم تلتزم الحكومة قانونا بعينه تفرضه على الدولة كلها بل اختارت القضاة من مناح مختلفة في الاجتهاد) «ضحى الإسلام ج/ ٢ ص ٢٣٧».

ويجوز السؤال عن اسباب هذا التقهقر الفكري والقانوني لدى المسلمين بعد ألف عام من هذا المجد الزاهر الحافل. فترانا اليوم قاعدين على رصيف التاريخ نمد اليد نحو ما تنتجه مدارس القانون الاوربي والامريكي ونشرب ما يعد لنا من خليط اجنبي ومزيج اعجمي ونحن غافلون عما لدينا من كنوز ساهمت

في صنع الحضارة الانسانية بنصيب الاسد. وكان الاجدر بنا وأولى أن نعمل الرأي في القرآن ونتدبر السنة ونتفق على الاجماع ونسن وجوه القياس ونحدد معالم الاستحسان ونعقد الندوات لضبط المصلحة المرسلة وبذلك نكون احطنا بنظرية الإسلام في القانون الدولي وهي نظرية مبثوثة في مصادر الشريعة كان احرى أن تستقيم بفضلها علاقاتنا الدولية ونستعين على النهضة الصحيحة القويمة عوض التجديف في متاهات المدارس المستجلبة والتتلمذ المهين على اساتذة القانون في اوربا وامريكا بلا إرادة حرة مستقلة، ثم نحاسب أنفسنا على تلك الثقة التي وضعناها في مدارس القانون الدولي المفروض: أين مواطن العدل فيها واين مواقع السلام؟ إننا نعاني كل يوم من جراء مظالم هذا القانون الدولي المفروض؛ فها هم أولاد عمومتنا في فلسطين يتقاتلون والعدو التاريخي الصهيوني ما يزال يسلب الارض ويصهين القدس ويسلح نصف ابناء فلسطين ضد نصفه الثاني بدعوى أن البعض قبلوا بشرعية الاغتصاب والبعض الثاني رفعوا لواء الجهاد الإسلامي، ثم ها هم اخواننا في البوسنة كادوا يبادون أمام انظار الرأي العام الاوربي وما يزالون تحت حماية الحلف الاطلسي وتحت قذائف الصرب الهمجيين؛ واين القانون الدولي في القوقاز حيث سوّى الروس كل مدن الشيشان بالارض وقتلوا اكثر من مائة الف انسان واخيرا اين كانت بنود القانون الدولي ومواثيق جنيف عندما قتل الصهاينة آلاف الاسرى من ابناء مصر في ١٩٥٦ و١٩٦٧؟ وما رأي ذلك القانون في تعلة تقادم التهمة؟ في حين يواصل ملاحقة

النازيين الالمان بتهمة قتل اليهود بعد نصف قرن.

إن كل مآسي المسلمين في اواسط هذا القرن وأواخره جاءت بسبب القانون الدولي الجائر مثلما كانت كل محن الامة منذ قرن ونيف نتيجة العقيدة الاستخرابية، وتولد هذا من ذاك وترعرع ذاك في رحم هذا. ونحن لم نفق بعد مما سماه شاعر الارادة ابو القاسم الشابي رقدة العدم.

هل يخطط القانون الدولي لالغائنا من التاريخ؟

إن تشكيل منظومة القانون الدولي الجديد بدأ مع قرار منظمة الأمم المتحدة في دورتها لعام ١٩٧٤ الذي صرح جهارا لأول مرة في تاريخ المنظمة بأن «النظامين السائدين - الشيوعية والرأسمالية - عاجزان عن تحقيق الأمن والعدل والسلام بين الأمم ولابد من نظام عالمي جديد ينهي آلام البشرية ويعيد لها الأمل في عالم اكثر أمنا وعدلا وسلاما».

وغني عن الذكر أن مجموعة دول عدم الانحياز التي كانت في مطلع السبعينات كتلة قوية ذات وزن هي التي اوحت بإعلان هذا القرار المبدئي الذي قبلت به كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي - أنذاك - وسعت دول المجموعة الاوربية الى اعلانه طعنا منها في ظهر العملاقين، فقد كانت اغلب الحكومات الاوربية ذات توجهات ايديولوجية تتراوح بين الاشتراكية والديمقراطية وتدعي انها اخذت من الشيوعية مخططاتها ومن الاشتراكية عدالتها الاجتماعية ومن الديمقراطية حرية المبادرة وخصخصة الملكية وليبرالية الاقتصاد والسوق.

وجاء عام ١٩٧٥ ليشهد تكريسا اوضح لعقيدة النظام العالمي الجديد ففي دورة المنظمة الأممية لذلك العام كُلِّفت منظمة اليونسكو باعداد تصور ثقافي علمي تربوي اعلامي لذلك النظام العالمي المعلن.

وتم انجاز ذلك التصور عام ١٩٧٧ وجاءت مبادؤه الكبرى الاساسية كالتالي:

- اعتبار الانسانية جمعاء اسرة واحدة.
- الارض تحمل الناس جميعا ولها علينا حقوق المحافظة على ثرواتها وحمايتها من التلوث وعدم تبذير خيراتها ومعادنها.
- ضرورة تجسيد حقوق الشعوب بجانب حقوق الفرد حتى يشمل مبدأ «حقوق الانسان» حقوق الامم في الأمن والسلام والتنمية.
- تكريس حقوق الامم في هوياتها الثقافية.

هذه هي المباديء التي بدت عام ١٩٧٧ ثورية بحق وعنها نتج التقرير الإعلامي الشهير الذي اشرف على تحريره المفكر العالمي «سين ماك برايد» الحائز على جائزة نوبل. وهو التقرير الذي فضح الهيمنة الإعلامية الرهيبة على الأمم المستضعفة ونادى باقرار العدالة الاعلامية وتقليص دور الغزو الثقافي الذي يكتسح العالم عبر الاقمار الصناعية والقنوات الفضائية ووكالات الأنباء العملاقة والصحف التنينة «من اشتقاق التنين» وتجوز الحيرة ويجوز الشك ونحن نعيش عام ١٩٩٦ بعد عشرين عاما على ظهور تلك المباديء ونشهد ركاما وحطاما

ورمادا لذلك اللهب المتوهج الذي ارادته الانسانية مبددا لظلمات الجاهلية والاستخراب والنهب والسلب ولم تكن إلا اضغاث أحلام وأوهام.

هاهي دار لقمان على حالها من منظور القانون الدولي والعلاقات بين الأمم وها هو الإسلام مستهدف كما كانت الشيوعية بل وحتى النازية واصبحت الاشارة الى الحضارة الإسلامية كعدو عالمي محتمل امرا كثير الوقوع بل وعاديا في الندوات الأممية ومؤتمرات الوزراء والملتقيات الجامعية والاستراتيجية.

فإذا قرأنا قراءة متأنية فقرات وحلقات ذلك المخطط السياسي والإعلامي الذي بدأ في التشكل منذ الثمانينات والرامي الى جعل القانون الدولي سلاحا موجها الى صدر الحضارة الإسلامية بهدف الغائها من حركة التاريخ المعاصر مع اقتراب القرن الحادي والعشرين فإننا سنرسم خريطة ستراتيجية واضحة المعالم محددة الغايات تبدأ من محاولة القضاء على الدولة الاوربية المسلمة الوحيدة اي البوسنة والهرسك وتمر عبر اقرار حكم ذاتي معوّق في جزء محدود ومحاصر من فلسطين وتنتهي بعقد مؤتمرات سكانية وحريمية وشبه ثقافية تعلن كلها عن عصر تفوق العنصر الصليبي والصهيوني وارادته الانفرادية لحكم الدنيا وقيادة الحضارة الانسانية؛ والقانون الدولي موجود للتعليل واضفاء الشرعية وتمرير المأساة؛ فالسيد ويلي كلايس الأمين العام السابق للحلف الاطلسي متفق مع الرئيس الاسبق للولايات المتحدة ريتشارد نكسن ومع السيدة مادلين البريت

مندوبة واشنطن في نيويورك على أن الإسلام هو العدو القادم ويجب تحجيمه باللين أو بالقوة . . وشرعت كثير من المنظمات باسم القانون الأممي تعيد هذه المقولة وتبثها بالاضافة الى شبكات تلفزيونية ومنابر مشبوهة وكأن تلك الرسالة الشريرة استحضار لكلمة وزير المستعمرات البريطاني ١٨٩٥ «غلادستون» الذي قال : **«لاتتصوروا للامبراطورية البريطانية أي مستقبل مادام في أيدي المسلمين كتاب يقال له القرآن»**.

أما المعطيات الاساسية التي غابت عن اذهان هؤلاء المخططين فهي أن الإسلام هو الدين الأوحد الذي يحمل حضارة في العصر الراهن رفض الانفصام والفصل فيه بين الاديان والحضارات، ونلاحظ في اوربا وامريكا لدى المفكرين المخلصين قلقا كبيرا وحيرة عميقة تجاه تلك القطيعة بين الدين الذي هو منظومة قيم وبين المجتمعات التي اصبحت منظومة مصالح . . والذي حدث هو انتفاء الحضارة أو اخطر من ذلك كما يقول زعيمهم «الفين توفلر» بداية السقوط المؤدي للهاوية مثلما وقع للحضارة الرومانية قديما والفكر الماركسي حديثا .

نموذج من مشروع حضاري مجهض

من كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك

تأخذ عبارة «مراوحة المكان» كل معناها عندما يبتلى الإنسان بمطالعة التاريخ وتفسير أحداثه واسقاط عبره الخالدة على واقعنا المرّ.

وأحيانا أقول: إن العالم الإسلامي يراوح مكانه منذ مدة بعيدة بل منذ أكثر من قرن عندما أعود لفتح كتاب مثل (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) للمصلح المفكر الوزير خير الدين التونسي، وهو الكتاب الذخيرة الذي صدر سنة ١٨٦٨ ولقي رواجا كبيرا وتأثر المصلح المصري الشهير رفاعة الطهطاوي عندما روجته مكتبة الإسكندرية كما تأثر به المصلح العثماني مدحت باشا باسلامبول وصدرت منه طبعتان بالاسكندرية واسلامبول.

المهم أن الكتاب جاء بقلم رجل تقلب في مناصب المملكة التونسية وزار باريس في مهمات رسمية سنة ١٨٤٦ و١٨٥٣ وأراد أن يستنطق التراث الإسلامي ليتوافق العصر معه بالأخذ من تجارب النهضة الفرنسية دون المساس بثوابت الحضارة الإسلامية. فالوزير خير الدين باشا بفضل ذكائه النفاذ وثقافته العالية قطع مراحل غريبة في حياته الطريقة الحافلة، فقد اشتراه ملك تونس احمد باشا باي في اسلامبول عام ١٨٣٩ وانضم الى الحاشية الملكية وتعلم فنون القلم والحرب واستوعب علوم

عصره ثم عين وزيرا للبحرية ودرس تاريخ أوروبا إلى جانب معايشته لها في باريس وأصبح زعيم حزب المصلحين الذين تحقق على أيديهم أول دستور للدولة التونسية عام ١٨٥٧ وهو دستور عهد الأمان الذي لحق به دستور أحسن وأوضح عام ١٨٦١ وترأس خير الدين باشا ماكان يسمى المجلس الأكبر أي مجلس الشورى وأسس المدارس الشهيرة التي ظلت بعده قائمة لعشرات السنين مثل مدرسة العلوم الحربية بباردو والمدرسة الصادقية وغيرهما، ويكفي خير الدين باشا فخرا أن يعلم القارى أنه عندما غادر تونس بسبب تأمر المتأمرين ومكر الماكرين احتضنه السلطان العثماني وعينه «صدر أعظم» أي رئيسا للوزراء فأصبح خير الدين الرأس الثاني للخلافة العثمانية بعد السلطان وامتدت حركته الإصلاحية إلى كامل ديار الإسلام. وهكذا كان يعامل المصلحون في عصر الخلافة، كانوا يبوأون مناصب الحكم لوضع أفكارهم موضع التنفيذ وكانوا يتنقلون دون جواز أو تأشيرة فيتقلبون بين معابر العلم ومعابر السلطة في بلدان إسلامية عديدة.

ونرجع إلى فكرة الانطلاق أي إلى عبارة: العالم العربي يراوح مكانه منذ أكثر من قرن، فقد تأملت جملة الإصلاحات التي وردت في كتاب (أقوم المسالك) وعجبت شديد العجب لأن الوزير خير الدين كأنما كتبها اليوم عام ١٩٩٥ ومايزال العرب صما عن تلك الإصلاحات، وسأعرض الإصلاحات الخمسة لتعلموا أنها لا تزال كما صاغها صاحبها عام ١٨٦٨ حبرا على ورق. وهي التالية كما لخصها الأستاذ الدكتور عبد

الجليل التميمي في محاضرة له على منبر جامعة قطر :

أولا : يرى خير الدين أن تقدم الدول الأوروبية هو نتيجة حتمية لتطبيق نظام المؤسسات واستقلالية العدالة والسعي إلى تغليب المصلحة العامة .

ثانيا : شيوع المعرفة كعنصر جوهري للتقدم في التعلم والعلوم والفنون .

ثالثا : العمل على ايجاد منابر للحوار بين الحاكمين والمحكومين .

رابعا : أن الذي عاق تقدم العالم الإسلامي ليس هو الإسلام بل هو التهاون في تطبيق شرائعه وقوانينه الثمينة فالإسلام صالح لكل زمان ومكان .

خامسا : ضرورة أن تعتمد الدول الإسلامية على نفسها إقتصاديا بتطوير إمكاناتها الذاتية ومنتوجها المحلي .

هذه هي مقومات النهضة في العالم الإسلامي ولخصها الوزير خير الدين لكن الكتاب أطنب في شرحها وتعليلها ودعمها بالحجة القائمة والبرهان الساطع ، ولنا أن نتساءل بعد قرن وثلث تقريبا من بلورة هذه الأفكار ماذا فعلنا لنغير ما بأنفسنا حتى يغير الله سبحانه مابنا؟ الجواب واضح وضوح الشمس : عملنا عكس هذه الأفكار الخمسة بل لم يأت علينا القرن العشرون إلاّ وأغلب دار الإسلام ترزح تحت نير الاستخراب الصليبي وانضم اليه وأيده التوطين الصهيوني منذ أواسط القرن العشرين .

وذلك هو ماسماه المفكر الجزائري الإسلامي مالك بن نبي

«قابلية الشعوب المسلمة للاستعمار» كانت مسيرتنا المعاكسة لروح الإصلاح تؤدي بنا مباشرة إلى فرض حكم الأفرنجة علينا وسلب خيراتنا وتخديرنا بنماذج التقدم المادي الغربي .

وليتأمل كل مثقف بأمانة وأمام ضميره تلك العناصر الخمسة التي جاء بها كتاب (أقوم المسالك) للوزير خير الدين ليوقن أننا فرطنا في ذلك الرصيد الإيماني والسياسي المخزون في حضارتنا الإسلامية فأصبحنا شتاتا نضرب في اراضي التيه لا مستقر لنا .

وقد وقع للعالم الإسلامي منذ ١٣٠ عاما مايقع لأيّ مريض لا يطبق وصفه الطبيب . فالطبيب كان حكيما وعالما ومخلصا وتلك إحدي الوصفات الشافية ضمها بين دفتيه كتاب (أقوم المسالك) كما ضمتها كتب أخري عديدة صدرت هنا وهناك في العالم الإسلامي ولا من مجيب ولا من صدى ؛ بل إنك تقرأ تلك الوصفة فتكاد تجزم أنها موضوعة اليوم لمعالجة مايقع من حرب أهلية مدمّرة في أفغانستان ومايهز الجزائر من عنف دموي رهيب وما يهدد فلسطين بانفتاح صدام مخيف بين سلطة عرفات وحركة حماس ومايجرى من حروب إبادة في البوسنة والهرسك والشيشان وكشمير . . بل وحتى قضية الشتات العربي بعد قرار ليبيا بترحيل آلاف العمال من أرضها وقضية محاكمة الاخوان المسلمين في مصر وقضية قيمة الإنسان وكرامته في أراضي المسلمين . إن أعمار الأمم كأعمار الناس محددة بآجال وقد قال الله سبحانه في سورة الحجر : ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وما

يَسْتَأْخِرُونَ (٥)﴾ صدق الله العظيم. فلنكن أمة تريد الحياة وتنشد البقاء في ظل تعاليم القرآن تصيخ السمع إلى ورثة الأنبياء أي علماءها لعلّ الله يكتب لها النهضة بعد الكبوة والصحوة بعد الرقدة.

وإن القارئ لكتاب (أقوم المسالك) يجد نفسه أمام مشروع للأمة الإسلامية لكنه مشروع مجهض فقد أصبحنا أمة نموذجية في التفريط في ورثة الأنبياء بل إن علماءنا وقادة الرأي لدينا أصبحوا غرباء إما في منافيهم وإما في عقر ديارهم يضربون كالشتات في أصقاع الأرض أو في بلدانهم بدون هدى بحثا عن أمان وشيء من رزق. ومارجوعنا إلى بعض أفكار هذا المصلح إلاّ بسبب الاعتقاد بأن الجسر آنهدم بين أعلام الرأي وواقع الأمة وتبدو لنا أولوية الأولويات في ترميمه وإعادة تشييده وفي هذا المجال **(هل غادر الشعراء من متردم)** لقد قيل هذا الكلام ويقال يوميا لكن لا من صدى!

إن أبرز فكرة من أفكار المصلح خير الدين وجوب الأخذ عن الحضارات الأخرى ما يصح لحضاراتنا وما لا يتنافى مع ديننا ويضرب الأمثال على ذلك بقول الرسول صلى الله عليه وسلم **(الحكمة ضالة المؤمن)** وبسنة الرسول كذلك عندما طبق نصيحة سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق في غزوة الأحزاب ويؤيد المصلح هذه السنة الكريمة بتعريب الخليفة المأمون لعيون المنطق والفكر السياسي والفلسفة والعلوم عن الثقافة اليونانية حتى أن الإمام الغزالي قال: (من لا معرفة له

بالمنطق لا يوثق بعلمه) ويضيف خير الدين قائلا : (إذا كان في ذلك صلاح لذمة وتقوية لها مع عدم معارضته للشريعة المنزلة).

ويخصص كتاب (أقوم المسالك) جزءا هاما من مقدمته إلى الإصلاح السياسي ويؤكد على ضرورة آيجاد مؤسسات للحكم شبيهة في شكلها بالتي رآها في باريس ولكن تختلف عنها من حيث موافقة الشرع فيقول : «فان الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة ولا سيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاع واستعماله؛ وشأن الناقد البصير تمييز الحق في الشئ المعروض عليه قولا كان أو فعلا فليس بالرجال يعرف الحق ولكن بالحق يعرف الرجال. . . »

وينطلق خير الدين من هذا الرأي إلى ضرورة استرجاع ما أخذ من أيدينا وكنّا عليه من قبل وبخاصة في تطبي مبدأ الشورى كإحدى دعائم القرآن والسنة حتى ولو اتخذت الشكل المستجلب أي الديمقراطية الأوروبية في القرن التاسع عشر. وهذا الرأي مايزال يشغل بال المسلمين اليوم وطالما تحدث فيه الإمام الشيخ محمد الغزالي وأطنب. يقول خير الدين : «إن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد من أهم الواجبات شرعا. » وينصح العلماء بعدم التملق المفرط وعدم هجر الحكام هجرا لا مبرر له أي أن تكون العلاقة متكافئة مؤسسة على احترام متبادل وتفهم كلا الطرفين لمقتضيات الطرف الثاني، وطبعا فإن منزلة خير الدين تسمح له بالتعبير عن

دواخل الحاكم ودوافع العالم لأنه حاكم وعالم في الآن نفسه وقلما أتيحت تلك المنزلة لرجل مسلم في العصور الحديثة.

يعقب الأستاذ على خناش في سلسلة مقالات صدرت له بجريدة الحرية التونسية بعنوان (مع رائد الإصلاح خير الدين) أغسطس ١٩٩٢ بأن ذلك المصلح اهتدى منذ مائة وثلاثين عاما إلى قضية الحداثة والأصالة التي تثار هذه الأيام هنا وهناك وتوصل إلى الاعتقاد أن الحداثة لا تكون إلاّ بنت الأصالة.

ومن أحسن مايقرأ المرء عن خير الدين تلك الصفحات القليلة التي أفردها له المرحوم أحمد أمين في كتابه (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) إلى جانب الأنداد العباقرة من أمثال محمد بن عبد الوهاب ومدحت باشا وجمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده فيلاحظ القارى أن أحمد أمين يتفاعل مع الوزير خير الدين وينصفه ويقص علينا غرابة المسيرة الإصلاحية التي قطعها بإرادة فولاذية، وكان أحمد أمين مؤرخا متميزا للعراقيل والمؤامرات التي تعرض لها خير الدين في تونس وفي الآستانة (عاصمة الخلافة العثمانية استمبول اليوم) وإنك لتتابع مسلسل الحقد لأولئك الذين يريدون حماية مصالحهم الشخصية وامتيازاتهم الأنانية فتدرك أنك أمام نموذج متكرر من فكر الإصلاح الإسلامي وردة الفعل الرديئة الماكرة.

أنموذج متكرر منذ فجر الإسلام وليس لسنته تبديل. فهل نقول مع بعض القائلين إن خير الدين باشا - تماما كعبد الرحمن ابن خلدون - جاء قبل عصره أو نشأ في غير مصزه؟ وهل نقول

إن وأد العلماء والمصلحين عادة من عادات التاريخ العربي كأنما هي قدر من أقدارنا وقضاء قضي لنا ولا مرد له؟

يقول أحمد أمين: «ومات وهو في الآستانة سنة ١٣٠٧ هجرى ١٨٨٩ مسيحي عن نحو سبعين عاما ودفن في جامع أيوب وخلّف تاريخا في الإصلاح حافلا وكفاحا للفساد طويلا وذنبه أنه لم يجد معاونا من الشعب ولا مؤازرا من السلطان.. وكانت فضائله الجرأة في قول الحق وصلابته فيما يعتقده من غير انحناء وحريته في تفكيره من غير جمود وقوة كواهله على حمل الأعباء من غير تبرم. فرحمه الله...» (من كتاب زعماء الإصلاح ص ١٨٣).

الفصل السابع

التاريخ في خدمة المشروع الحضاري

ويشتمل على :

- الحضارة أم مصطلح العمران
- كيف يقرأ المسلمون تاريخهم
- كذبوا علينا لم يمر الإسلام بعصور انحطاط
- عندما استعمرونا وجدوا بلادنا بلاد خير وحضارة
- كيف ينسج الاستعمار خيوطه

الحضارة أم مصطلح العمران؟

جزى الله لغتنا العربية كل خير فما أغناها وماأثراها بالمصطلحات والعبارات والألفاظ مهما اختلفت معانيها ودقت مغازيها حتى إنك واجد أحياناً عشرين كلمة تدل على شيء مفرد لكن بتباين جزئيات يكاد . . يخفى على غير العارفين؛ ونجد فى تاريخنا الإسلامي ألف مشكلة وقعت في السياسة والفقه والقانون والمجتمع أساسها اختلاف في تفسير مصطلح أو ترجمة عبارة أو استعمال كلمة وأشهر تلك المشكلات نشأت زمن الفتنة الكبرى حول كلمة الحق التي أريد بها باطل والمواقف حولها معروفة لسنا بصدد الرجوع إليها.

إن الذي يهمنا اليوم هو اختفاء صراع المصالح خلف ستار صراع المصطلحات والأمثلة عديدة نراها كل يوم وتؤثر في حياتنا وتوجه إعلامنا وتكيف الضمير المسلم؛ خذ مثلاً: **(مصطلح حضارة)**، وقد أثارت هذه الكلمة نقاشاً مفيداً في جل ندواتنا الجامعية والفكرية فلفظة حضاري وحضارة أصلها العربي هو عكس البداوة، فهي إذن لفظة محملة بالطبع بشحنة إيديولوجية تقوم على أساس تَفوُّق ماهو حضري على ماهو بدوي. وكنا نأمل لو تقدم أحد العلَماء باقتراح لفظ بديل أكثر أصالة وأوفر حياداً وهو لفظ العمران الذي كرّسه العلامة عبدالرحمن بن خلدون حين أوفاه حقه من البحث والتحليل في المقدمة ذاكراً أن العدل أساس العمران. ومصطلح العمران

مصطلح عربي مسلم لا يفرق بين حضري وبدوي ويرتكز في تعريف الاجتماع الإنساني على مقولة التعمير والإعمار والمعمار أي يضع شروط الحضارة بمعاكسة الخراب والتخريب وهو المعنى العميق لما نسميه اليوم حضارة أي غرس أسباب التقدم وبذور النهضة.

ولم نكن لنشك في مصطلح حضارة لو لا أن بعض الأقلام العلمانية تقوم منذ مدة بحملة مركزة في بعض الصحف العربية متهمة الفكر الإسلامي بأنه فكر صحراوي وبأن القيم التي يحملها ديننا الحنيف إنما هي قيم مضت وانقضت مع أصولها البدوية مادامت الأمة - في نظر هؤلاء - تسعى للحضارة أي حضارة التنكر للبداوة! وهؤلاء في حملتهم المشبوهة يجمعون بين رفض الأصول والتبشير بعهد يدعون أنه جديد وأنه عالمي وأنه شمولي وأنه بالطبع متحضر!

ونحن إنما نفهم مصطلح **(الحضارة)** بهذا المعنى أي معني العمران القرآني والبشري والخلدوني من حيث إنه يُشير إلى تكامل التنمية والثقافة في بوتقة الهوية وكذلك وحدة الجذور والاشتراك في المصير بين المنتمين إلى حضارة الإسلام. وفي هذا الفصل من الكتاب نتطرق إلى السند الأول للمشروع الحضاري الإسلامي الذي هو التاريخ. فالتاريخ هو العلم الرئيس الذى بدونه لا يستقيم أي مشروع حضاري. ولكن أي تاريخ؟

فنحن المسلمين جاءت إعاقتنا الأساسية من سوء قراءتنا

لتاريخنا أو بالأحرى من تحريف التاريخ المقدم لنا عبر منظور عدائي موجّه مكيّف، ونحتاج اليوم ونحن نهندس مشروعنا الحضاري إلى إعادة النظر جذرياً في علم التاريخ ومناهج تدريسه وطرق كتابته حتى نوظفه لخدمة المشروع.

هذا وللتاريخ منزلة في الإسلام لم يبلغها دين سماوي آخر حتى أن عبدالرحمن بن خلدون سمى القرآن الكريم: كتاب العبر الأكبر نظراً إلى احتوائه على زخم كبير من الآيات المجيدة الداعية للاعتبار بالتاريخ واستخلاص الدروس الحضارية من نشوء الدول وانهيارها وارتفاع المجتمعات وانحدارها. بل إن الله سبحانه وتعالى ربط بين الدخول للجنة وبين الاعتبار بالتاريخ ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** (٢١٤) ﴾ [البقرة: ٢١٤].

كيف يقرأ المسلمون تاريخهم؟

خلال مدة بحثي في جامعة السربون وفي قسم التاريخ الإسلامي بالذات كنت منشغلاً أشد الانشغال بقضية كانت هاجساً فكرياً لي تقض مضجعي وكثيراً ماأطرحها على الزملاء والمؤرخين العاملين بالقسم. هذه القضية هي رؤية المسلمين اليوم لتاريخهم. كيف يقرأونه؟ وبأي عين يرونه؟ ومن أي المراجع يستقونه؟ ومن وراء أي حجب وستائر وشاشات ينظرون إلى أحداثه ورجاله وفتوحه وحروبه ودوله؟

كل هذه الأسئلة كنت أحملها في عقلي وفي ضميري وطالما طرحتها في ندواتنا الجامعية السربونية بحضور أكبر الأساتذة والمؤرخين والمستشرقين وطالما سمعت من أفواه هؤلاء أن هذه الأسئلة تدعو لأجوبة بديهية معروفة؛ لكني كنت ومازلت أصر على طرحها اعتقاداً مني أن بيت الداء العربي الإسلامي في عصرنا الراهن هو تقييم التاريخ وتوظيف التاريخ فكل فكر سياسي مسلم يعبر عن رأي أو يطرح منهجاً لا بد أن يعتمد التاريخ ويستند إلى فلسفة تاريخية تكون قوامه وتكون حجته وتكون برهانه.

ومن أجل ذلك كان عليّ منذ أن درست جزءاً من التاريخ الإسلامي بجامعة السربون أن أتساءل كيف يقرأ المسلمون اليوم تاريخهم؟ وطبعا حاولت أن أجيب عن هذا السؤال معتمداً على ماحصل بين يدي من مؤلفات الزملاء الأساتذة المسلمين فوصلت في هذه المحاولة إلى تصنيف المؤرخين أو المفكرين إلي ثلاثة أصناف أساسية.

١ - الناقلون عن المستشرقين

لدينا جيل كامل من أهل التاريخ ممن ترعرع فكرياً وثقافياً في مدارس وجامعات لندن وباريس على مذاهب أهل الإستشراق، وهم على حسن نية لا يدينون إلا بما صدر عن أساتذتهم الإنجليز والفرنسيين ممن اختصوا في التاريخ الإسلامي، ولكن نقل هؤلاء عن معلميهم لم يقتصر على دقة الحدث التاريخي أو استنطاق المعلم الأثرى بل تجاوز ذلك إلى

محاكاة المستشرقين بدون شعور في توظيف التاريخ لأغراض الهيمنة على الأمة الإسلامية وزرع بذور الاستنقاص الذاتي لدى نُخبها وزعزعة ثقة المسلمين في ماضيهم وفي أنفسهم وفي مستقبلهم. ولا يسعني في هذا الصنف إلا أن أحيل قرائي على الكتاب القيم الذي ألفه الزميل الفاضل الدكتور عبدالعظيم الديب وصدر في سلسلة كتاب الأمة حول الاستشراق. والذي يصدر عن وزارة الشؤون الإسلامية في قطر.

٢ - الناقلون عن التراث

هذا الصنف من المؤرخين يأخذ مصادره من عيون التراث العربي الإسلامي لكنه ينقل عنه دون غربلة ودون شك مما يعطي انطباعاً لدى القراء أن معظم تاريخنا الإسلامي ماهو إلا تواصل المؤامرات والدسائس واستمرار القتل والإبادة وتلاحق الفتن والمحن؛ بينما نهمل رسالة التاريخ الإسلامي الفذة التي تمثلت في اتساع الفتوح وتقويض الظلم وبناء الدول وتجميع الشعوب. والسبب في زيغ هذه النخبة عن القصد هو أن المصادر التراثية نفسها مليئة بكثير من التشويه لأنها وضعت من قبل الدول التي حلت محل الدول الزائلة والتي وجهت الأقلام إلى محاربة ماقبلها. فأغلب الذى وصلنا عن عصر الإمام علي رضي الله عنه كان عبر تاريخ الدولة الاموية وأغلب الذي طالعناه عن الدولة الأموية استقيناه من كتاب الدولة العباسية ومعظم ماعرفناه عن السلاجقة وضعه الفاطميون وهلم جرا إلي يوم الناس هذا، دول وأمم تحول ويأتي من بعدها من يشوه

التاريخ خدمة لغرض سياسي، ولم يستقر بين أيدي جيلنا إلا الجانب المشوه، فإذا قرأت مثلاً ماكتب في كتاب الأغاني عن الوليد بن عبدالملك ماقيل عن ذلك الخليفة من مساوىء ولن تجد أثراً لما وصله المد الإسلامي على يديه حيث بلغ تخوم الهند واندونيسيا، وقس على ذلك ماقيل بعد انهيار الحكم العباسي وسقوط بغداد عن الرشيد والأمين والمأمون وسواهم وكذلك ماكتب عن السلاجقة والفواطم والخلافة العثمانية، ولعل أنصع الأمثلة عن النقل التاريخي دون غربلة في زمننا الراهن كتاب المستشار المصري محمد سعيد العشماوي عن الخلافة الإسلامية حيث نقل الرجل كل الصور المشوهة لتاريخ الخلافات المتعاقبة دون إعمال رأي نقدي ودون تشكيك ضروري، ومايشفع للرجل هو أنه رجل قانون لا رجل تاريخ وأنه يوظف التاريخ في سبيل فكر سياسي وليس همه الأمانة العلمية كقيمة في حد ذاتها. (وقد سبب الكتاب ضربة كبيرة للعلماء والمثقفين المسلمين).

٣ - الناقلون الناقدون

وهو الصنف الذى نستزيد منه ونبارك مسعاه حيث ظهر جيل كريم من إخواننا وأبنائنا يستعمل أدوات التمحيص والروية والتأني والاستقراء والمقارنة والاستنتاج، فلا يمر حدث من مصافي عقولهم إلا وينظف مما علق به من التزييف والبهرج حتى يقدم للقراء كما هو أي بتقواه وفجوره. خالياً من المغالطة والتهريج.

وهذا هو التاريخ الخادم للحق والموجه لبناء الهوية الإسلامية ، فالقصد من التاريخ ليس نبش الماضي بقدر ماهو تمهيد المصير . فما أحوج أمتنا إلى أن يتناول هؤلاء تاريخ الفتنة الكبرى والعصر الأموي والعباسي والحروب الصليبية وعصر مايوصف بالانحطاط ثم عهود النهضة والصراع مع الاستعمار ثم بناء الدول الحديثة وتاريخ الخلافة العثمانية . بهذا العمل دون سواه يمكننا أن نحدد ملامح شخصيتنا العميقة ونرسم خطوط هويتنا الحق .

كذبوا علينا

لم يمر الإسلام بعصور انحطاط!

قال أبو تمام في بعض أشعاره:

قد يُنعم الله بالبلوى وان عظمت

ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وهو بيت يعيد للذهن معنى الآية الكريمة ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] إن العالم الإسلامي اليوم بالرغم مما يعانيه من ويلات ومايكابده من عداوات، مؤهل للاعتبار بأخطائه وإعادة النظر في ترتيب بيوته والأقدام عبر صحوته على اقتحام القرن الحادى والعشرين عزيزاً منيعاً صانعاً للحضارة سيداً متحكماً في مصيره غير مسود.

ومن أبرز وجوه الاعتبار بالأخطاء إزاحة الغشاوة الفكرية التي أضلتنا أجيالاً كاملة، وهي غشاوة الاعتقاد الخاطىء بأن الإسلام مر بقرون انحطاط أو عصور ظلام أو عهود سبات طويل؛ وهذا الاعتقاد المبالغ فيه تحول إلي عقيدة أصبحت من المسلم بها ومن البديهيات يصدح بها المحاضرون على المنابر ويكتبها المؤرخون في كتبهم ويعيدها المعلمون في مدارسهم كأنما هي واقع ثابت لا جدال فيه.

أما الحقيقة فهي أن هذه الأكذوبة التي انطلت على أغلب المسلمين هي من ابتكار الاستشراق الأوروبي الصليبي الذي

مهّد لزرع الاستعمار والاستخراب في دار الإسلام فكان عمل طلائع التنصير والهيمنة يتمثل في إقناعنا أننا كنا نعيش عصور انحطاط وأننا بفضل الاستعمار؛ بل قل الاستخراب الأوروبي نهضنا من نومنا الحضاري وصحونا من كهوفنا وخرجنا لعصور المدنية! حتى نسبّح باسم المدنية الغربية التي أخرجتنا من الظلمات إلي النور. . . !

وقد جمعني حديث مع زميل مؤرخ كريم كان خصص بحوثاً لـ «عصور الانحطاط الإسلامية» فيما مضى من الزمان فسألته قل لي سلمك الله من أي زمن بالضبط أرخت بداية ماسميته بعصور الانحطاط؟ فأجاب: بعد العصور الذهبية مباشرة! فقلت هذا كلام عمومي غامض، فهل تدلني بالتدقيق على ماسميته بداية انحطاط. . فأجاب غير واثق: لنقل أواخر القرن الرابع عشر مسيحي. وهنا فتحت وإياه كتاب **«حوليات العالم الإسلامي»** للدكتور حسين أحمد أمين؛ وبدأت استعرض في عجالة بعض أمجاد الإسلام منذ ذلك التاريخ، بعضها كعينات فحسب لا كلها، فقلت له ياأخي الكريم كيف تعتبر مثلاً عام ١٣٧١م انحطاطاً وفيه الحق العثمانيون أكبر هزيمة بالصرب في البلقان عند نهر مريج عابرين إلى أوروبا. . وكيف نسمى عام ١٣٧٧م عام انحطاطا وفيه شرع العلامة عبدالرحمن بن خلدون في كتابه أعظم سفر من أسفار علم التاريخ وعلم الاجتماع؟

وبعدها بخمس سنوات استقر ابن خلدون للتدريس في الأزهر الشريف؟ وهل يمكن ان نتحدث عن انحطاط عندما

نعلم أن الجيش الإسلامي المظفر صد الهجمات الفرنسية الصليبية عند مدينة المهدية التونسية عام ١٣٩٠م؟ وعند بروز القرن الخامس عشر، كتب المؤرخ ابن الفرات كتابه «تاريخ الدول والملوك» وكتب الدميري كتاباً علمياً فذاً مازال يعتمد إلى اليوم في جامعات الغرب وهو كتاب **«حياة الحيوان الكبرى»** وفى أواسط القرن الخامس عشر ظهر الإمام السيوطي بعلمه الغزير كما ظهر المقريزي صاحب كتب الخطط والسلوك واتعاظ الحنفاء واستولى المسلمون العثمانيون على مدينة أثينا في ٤ يونيو ١٤٥٦م وكتب ابن تغري بردي كتابه «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» وكتابه «حوادث الدهور». أما عند مشارف القرن السادس عشر، فقد كتب المؤرخ الصيرفي كتابه «نزهة النفوس والأبدان» وكتابه «أنباء العصر بأبناء العصر» وفي عام ١٥٠١ تؤسس الدولة الصفوية ثم يظهر المجاهد خير الدين بربروسة ليصبح سيد البحر الأبيض المتوسط منذ ١٥٢٠ ويفتح سليمان القانوني جزيرة رودس ويكتب المؤرخ ابن أياس كتابه «بدائع الزهور» وفي عام ١٥٤١ ينهزم أسطول شارل الخامس الجرار عند مدينة الجزائر المجاهدة رفضاً للتنصير وحفاظاً على هوية المغرب الإسلامي. وإذا بلغنا عام ١٥٧١ وجدنا الفتح الإسلامي العثماني لجزيرة قبرص وإنشاء أكبر مطبعة في القسطنطينية «اسلامبول» وكل ذلك في نفس فترة تحرير الكتاب التشريعي الهام وهو كتاب «الفتاوى الكبرى الفقهية» لصاحبه ابن حجر الهيتمى الفقيه الشافعي المصري وتزامنت هذه الأحداث مع أعمال ابن زنبل العالم المصري في

رصد حركات النجوم والمجرات وكذلك بناء أكبر مرصد فلكي في اسلامبول لتتويج مايسمى اليوم بعلم الفضاء والمسلمون سباقون فيه بلا منازع.

وتجلى في آخر ذلك القرن وفي عام ١٥٩٣ طبع كتاب ابن سينا «القانون في الطب» في روما عاصمة الحضارة الغربية في ذلك العهد ليصبح الكتاب أكبر مرجع للطب وأعظم مصدر لعلوم الحياة ولتنشأ عنه الجامعات الأوروبية وإذا تحولنا إلى القرن السابع عشر وجدناه يبدأ بفتح الشاه عباس الأول لأذربيجان فاتحاً عهد أسلمة بلدان آسيا الوسطى وانتشرت العلوم والمعارف على كامل الإمبراطورية الإسلامية حتى غدت في ذلك القرن أكبر قوى الأرض وأوفرها حضارة وأشدها جيشاً وأكثرها جامعات وتوج ذلك العهد بانتصار المسلمين العثمانين سنة ١٧٣٥ على جيوش النمسا وبروسيا مجتمعة.

وانتشرت سفارات الخلافة العثمانية الإسلامية في كل من برلين وباريس ولندن وفيينا وروما كسفارات دولة عظمى تتقرب لها الممالك وتخطب ودها الدولالكبرى. حتى زفاقت دولتا فرنسا وبريطانيا وبدأتا تخططان لتخريب الخلافة من داخلها وبدأ نابليون حملته الصليبية على مصر عام ١٧٩٨ . . . والبقية يعرفها الخاص والعام: استعمار مفروض ومقاومة عارمة فأين أيها القراء المسلمون عهود الانحطاط وأين عصور الظلام؟ أليس الأجدر بنا أن نفند مزاعم أهل الغرب وأهل التغريب الذين أوهمونا أننا خرجنا من عصور الظلام لندخل أفواجاً في دينهم

العلمانوي اللاديني وأن نتغنى بما سموه أنوار المدينة وماأعلنوه من وهم اللحاق بركب حضارتهم وماأعدوه لنا من جنات النظام العالمي الجديد الذي تجري من تحته أنهار مجلس الأمن!

عندما استعمرونا وجدوا بلادنا بلاد خير وحضارة

نعم كذبوا علينا لم يمر الإسلام بعصور انحطاط؛ وهي عقيدة حضارية أؤمن بها وأتعلق مهما أثارت حفائظ بعض زملائنا الذين جعلوا من عصور الانحطاط المزعومة موضع اختصاصهم ورسخوا عن حسن نية تلك المؤامرة الاستعمارية الصليبية في نفوس أجيالنا، وللتدليل على صحة مانزعم لنضرب أمثلة الشعوب المسلمة في كل من مصر والجزائر وتونس في القرن الماضي حينما فرضت عليها القوى الفرنسية والإنجليزية ماأسمته الحماية أو الوصاية أو الانتداب أي الهيمنة في واقع الأمر ومصادرة الهوية والخيرات وتذييل أمتنا لخدمة مصالح أمم أخرى.

لو تأملنا حال هذه الشعوب الثلاثة عندما أرست مراكب الجيوش الأوروبية على شواطئها للاحتلال، لوجدنا أنها شعوب مسلمة آمنة أصيبت بالغزو النصراني كأنما أراد الله أن يعاقب قياداتها آنذاك على إهمال الجهاد والتفريط في حماية الأرض والعرض؛ ولكنها كانت شعوباً لها شخصيتها المميزة ومؤسساتها الإسلامية وكانت فيها الأسر التي هي الخلايا الأولى للجسم الاجتماعي متماسكة متوازنة متكافئة وكانت فيها القبائل قلاعاً اجتماعية وسياسية وثقافية محملة بقيم النجدة

والكرم والمروءة والتعفف. فحينما أناخ الإنجليز بكَلْكَلهمْ على مصر لم يجدوا أرضاً خراباً ولا وطناً يباباً بل وجدوا خَطَة حفر قناة السويس جاهزة بعبقرية الشعب المصري ووجدوا أرقى دور الكتب الوطنية في العالم والحدائق العمومية وحدائق الحيوان ووجدوا المستشفيات ودار الأوبرا وعديد المدن الَمتطورة بشوارعها الواسعة ومجاريها ومعالمها كماوجدوا خط سكك الحديد ووجدوا مليوني فدان من الأرض مستصلحة للزراعة وجيشاً يحمي منابع النيل ووجدوا كذلك برلماناً ومجلس شورى ومؤسسات دولة.

أما الجزائر فكانت من أبهج ولايات الخلافة الإسلامية العثمانية، ميناء من أكبر موانىء البحر الأبيض تصديراً وتوريداً وإنتاجاً زراعياً متنوعاً يغذي جزءاً من أوروبا نفسها منذ العهد الإمبراطوري الروماني إلي غاية القرن العشرين وكان الشمال الأفريقي يطلق عليه نعت «مطمورة روما» لأنه كان يزود عاصمة الروم بالقمح والشعير وزيت الزيتون، وظلت الجزائر المسلمة لمدة قرون تزود فرنسا وأحياناً بريطانيا وبلجيكا وألمانيا بخيراتها الزراعية.

ومن غريب المفارقات أن الاستعمار الفرنسي دخل من هذا الباب وكانت فرنسا مدينة للجزائر بمبلغ مليون فرنك قيمة شحنات من القمح الجزائري تلكأت الحكومة الفرنسية برئاسة «تاليران» في تسدسدها للحكومة الجزائرية. وطالبت الجزائر بتسديد ديونها - «نعم! صدقوا أو لا تصدقوا، لقد كانت الحكومة الفرنسية سنة ١٨٢٥ هي المدينة وكانت الجزائر

صاحبة الدين . . !».

وكان الوزير «تاليران» يبعث من باريس بوسيطين يهوديين هما بوجناح وبكري يفاوضان والي الجزائر الداي حسين في مسح الديون! فسبحان مغير الأحوال من قرن إلي قرن، ولنكمل القصة التاريخية العجيبة، فعندما يئس الفرنسيون من إمكانية مسح الديون أرسلوا أحد الجواسيس وهو «بوتان» الذي قدم كشفاً عن دفاعات الجزائر وموانئها وسواحلها وجيشها وأصبحت الحكومة الفرنسية تبحث عن حجة لغزو الجزائر، فوجدتها يوم ٢٩ إبريل ١٨٢٧ حينما تجاوز سفير فرنسا حدود الأدب في حضرة الوالي الجزائري فما كان من القائد المسلم إلا أن أوقفه عند حده وقيل إنه لطمه بمروحة كانت في يده، فكيف يجرؤ حاكم الجزائر على إهانة قنصل دولة أوروبية «دوفال» وهو في نفس الوقت مبعوث البابا، فلا بد من «تأديب» هذا الشعب المسلم بالاحتلال واسقاط الديون ومزاحمة بريطانيا التي حصنت معقليها في كل من مالطة شرقاً وجبل طارق غرباً.

أما في تونس فالاحتلال الهمجي الذي تم يوم ١٢ مايو ١٨٨١ لم تقابله مثلما ادعو بلاد متوحشة بدائية، بل دول متجذرة وإدارة راسخة كان نظمها المصلح الكبير الوزير خيرالدين باشا التونسي صاحب كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» والذي تولى بعد ذلك منصب الوزارة الأولى والصدارة العظمى في استنبول تحت سلطنة عبدالحميد الثاني. لقد وجد الفرنسيون دولة تونسية متينة الأركان أصدرت

دستورها عام ١٨٦١ وهو دستور عهد الأمان المعروف وتصدر فيها صحيفة ممتازة هي صحيفة الرائد التونسي بأقلام رواد النهضة والإصلاح، كما وجد الاحتلال مؤسسة التلغراف والسكة الحديد والجسور الحفصية «أي من العهد الحفصي» تعلو الأنهار ووجد الاحتلال شبكة المجاري الحفصية في اغلب المدن، والحمامات البخارية لنظافة الشعب كما وجد الجامعة الزيتونية منارة العلوم من رياضيات وفيزياء وكيمياء والمعارف الإسلامية واللغات الحية، إلى جانب المدرسة الصادقية وهى تحمل اسم ملك تونس محمد الصادق باشا باي، والغريب أن الاحتلال الفرنسي لتونس وجد الكنائس وبيعات اليهود وكل يمارس دينه في حرية وتسامح بل لكل محاكمه الخاصة ومدارسه الخاصة حسب تعاليم أديانهم!

هذه لمحات وشذرات فقط، فدلوني عن عصور الانحطاط أو عهود الظلام، أما الحقيقة فإن عصور الانحطاط بدأت مع بداية الاحتلال الصليبي الهمجي، حينما شرع جنود فرنسا في قتل علماء الأزهر بمصر وقتل علماء الجمعية الإسلامية بالجزائر وكذلك إعدام المقاومين التونسيين منذ الشهيد علي بن عمارة عام ١٨٨١ حتى الشهيد الهادي بن جاء بالله والمرحوم فرحات حشاد والمرحوم الهادي شاكر عام ١٩٥٢ مروراً بإعدام الشهيدين الجرجار والقاري عام ١٩١١ في أحداث مقبرة الجلاز عندما هدمت الإدارة الاستعمارية جزءاً من مقابر المسلمين في تونس بل إن أمتنا الإسلامية لم تعرف البربرية

الهمجية إلاّ من أوروبا. أليست البواخر النخاسية «من النخاسة» الأوروبية هي التي جاءت لتختطف خمسة عشر مليون أفريقي كعبيد لبناء أوروبا؟ أليست أوروبا هي التي أبادت شعوب سكان أمريكا الأصليين ليحل العنصر الأوروبي محلهم؟ أليست الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية من صنع أوروبا وأخذ الأوروبيون أمتنا الإسلامية فيهما رهينة وحطباً للحريق؟ أليست محتشدات الإبادة ومحاكم التفتيش من ابتكار العبقريات الأوروبية؟

فأجيبوا على سؤالي بكل موضوعية رحكمكم الله: من هو الهمجي ومن هو المتحضر؟ وأين تقع عصور الانحطاط؟.. قبل أن نختلط بهم أو بعد أن نزلوا كالجراد فحطموا قبائلنا وفرقوا عشائرنا واغتالوا ذاكرتنا وسرقوا تراثنا ولوثوا نقاءنا واستعبدوا عقولنا وصادروا خيراتنا ووضعوا على قلوبنا أقفالها ولم تزل منّا قلّة علمانوية جاهلية تعتقد أن الاستعمار بل الاستخرابَ قد أخرجنا من الظلمات إلي النور!

كيف ينسج العنكبوت الاستعماري خيوطه؟

في كتابه الصادر عام ١٨٩١ بعنوان «أسس الثقافات العربية واليهودية» يقول المنظر الاستعماري أرنست رينان: «يجب ألا نتردد كثيراً نحن أبناء أوروبا في إعلان تفوقنا على الأجناس الأخرى وبخاصة الجنس العربي الإسلامي الذي بيننا وبينه ثأر قديم، وأن نعمل مافي وسعنا للقطع بين هذه الشعوب وبين

ينابيعها الإسلامية لنلحقها ولو قسراً بركب المدنية الغربية» .

هذه العقيدة الاستشراقية الاستعمارية الاستخرابية ماهي إلا نموذج بسيط لذلك المد الهمجي الكنسي الصليبي الذي «أعلن تفوقه» على الإسلام بدون وجه حق وراح ينشر جراده على الأمة الإسلامية في مصر والجزائر وتونس والمغرب والشام حتى استقر عسكر الصليبية واستحكمت إدارته من أعناق شعوبنا باسم ذلك التفوق المزعوم منذ القرن التاسع عشر .

ولم يكتب البقاء للاستعمار الصليبي التوطيني إلاّ بواسطة عملية اغتصاب ثقافية وتربوية نتج عن سفاحها فكر محلي مستلب حرص المنظرون الصليبيون على أن يلقنوه تلك العقيدة تلقيناً فأصبح هو نفسه مؤمناً بها داعياً لها مقاوماً لرافضها وانخرطت تلك النخب المحلية في العمل الوطني التحريري وصدق من بينها كثيرون في مكافحة الحضور الاستعماري العسكري والرداري، ولكنهم أغفلوا حضوره الثقافي واللغوي والتنصيري، بل تحولوا - وأحياناً عن حسن نية - إلى جنوده المخلصين حينما انطلقت عليهم الحيلة الشيطانية الاستعمارية القائلة **بأن شعوب الإسلام عليها أن تختار بين إسلامها وبين ماسموه اللحاق بركب الحضارة وبين التمسك بجذورها ومنابعها وبين الحداثة كأن هناك تضاداً بين هذا وذاك . ولم تع النخبة المغسولة أمخاخها أنه لا تناقض أصلاً بين الإسلام والحضارة ولا بين الأصالة والحداثة، وألا طريق للمسلمين نحو الحضارة والحداثة إلا من خلال نهج الدين القويم نسلكه**

متميزين عن سوانا، حاملين كبرياء الإسلام، مثلما فعل أجدادنا وأسلافنا.

فلم يكن أبونصر الفارابي معلماً للغرب والشرق إلا بما أضافه من ضميره الإسلامي الحي إلي الفلسفة اليونانية فكانت مدينته الفاضلة مشروعاً إسلامياً حضارياً فذاً مغايراً لمدينة أفلاطون الوثنية. ولم يكتب كذلك لابن سينا وأبي بكر الرازي ولا لابن الجزار النبوغ في طب الأبدان والنفوس إلا حينما استلهموا من كتاب الله ذلك النسغ الصادق الطيب من الإيمان والسكينة واستخلاف الإنسان في الأرض. فكتب لعلمهم الخلود وأخذ عنهم العلماء الفرنجة مابه أنشأوا السربون وكبردج وهارفارد وعوضوا تراثنا بماضيهم ونوابغنا بمشاهيرهم **فأنسونا أنفسنا وشغلونا بقضاياهم وبدون أن نشعر بفداحة الكارثة تنكرنا لكل مايمت للإسلام بصلة وأصبحنا نرى بأعينهم ونتنفس برئتهم ونسمع بآذانهم ونزعنا عنا الجبة والعمامة ولبسنا الجاكتة والكرافتة فقتلنا بأيدينا صناعاتنا التقليدية**.. بل وشاهدت بنفسي أحد المهرة الفنيين من أبناء وطننا العربي وكان أحد القلائل المحافظين على أصول حرفة عريقة وهي الزينة التقليدية بخيط الحرير، حيث ترك تلك المهنة الاصلية النادرة ليصبح بواباً في أحد الفنادق السياحية يفتح الأبواب في وجوه الشقر والحمر القادمين من أوروبا. وهو رمز لا غير ولكنه رمز له معنى.

وحدث ولا حرج كيف أهملت برامجنا التربوية لمدة ثلاثين

عاماً في أغلب بلدان العرب تدريس فكر عبقري عملاق مثل عبدالرحمن بن خلدون حيث عوضتنا عنه قوافل معلمينا الأجانب بمن هب ودب من الثقافة الأوروبية. أضف إلي ذلك تدريس المواد العلمية باللغات الأوروبية غرساً لفكرة أن العربية لغة أدب وفقه ولا صلة لها بالعلوم، على أنها ترتبط بالماضي ولا دور لها في المستقبل. هذا هو الوهم الأكبر الذي زرعوه في جيل كامل من أبنائنا وهو حلقة من سلسلة الحملة الصليبية الثقافية استعداداً للحملة الصليبية السياسية والعسكرية التي نحياها اليوم في فلسطين والبوسنة وكشمير وفي بقاع كثيرة من العالم تسندها الحملة الصهيونية لاستئصال الفكر الإسلامي وإبادة المسلمين حيثما أمكن ذلك.

إن الرأي عندي أن الاستعمار عمل عمله التربوي والثقافي على مدى جيل كامل بواسطة النخبة العربية التي تخرجت على يديه وتعلقت بقشوره حتى يتمكن من تفكيك أوصال ذلك المارد الإسلامي الجبار فيقطع بين الأمة وتراثها، **بتحويل أمجادنا إلى فلكور لتهريج السياح في المهرجانات. وهي حلقة لبلوغ هذه المرحلة الراهنة من الإذلال والإيهام بالهزيمة حيث تملى علينا شروط أعدائنا ونحن خانعون. فأية عبرة أعظم وأهول من مشهد زعماء اليهود يحرصون في واشنطن على تلاوة توراتهم بالعبرانية حيث حولوا حفل يوم الثالث عشر من سبتمبر ١٩٩٣م إلى بيعة من بيع اليهود يرتل فيها كتابهم أو إلى حائط مبكى بينما الغى الفلسطينيون المسلمون من خطبهم كل إشارة**

إلي القرآن ليظهروا بمظهر المتمدن والمتحضر!! وأية حكمة أنصع من تسليح المتطرفين الصهاينة بالأسلحة وإطلاق أيديهم لقتل أبناءنا الأبرياء العزل في الضفة والقطاع، بينما يصرخ العالم بأن حماس منظمة إرهابية وخطيرة.. في حال أن حماس تطبق حرفياً الاعلان ١٤/ ١٥ من ميثاق منظمة الأمم المتحدة الذي يقول إن لكل شعب محتل الحق في المقاومة بما يتاح له من وسائل.

وأية مظلمة أوضح من اتفاق الغرب على تسمية الحركة الانفصالية لجنوب السودان بحركة تحريرية وطنية بينما يطلق نفس الغرب عبارة الانفصاليين المتمردين على الشعب الابخازي المسلم وهو يتوق إلى التجرر من استعمار جورجي تنصيري. وهل من حقيقة أبلغ كذلك من التصفيق لعملية سحق الشعب البوسني المسلم «نصف مليون شهيد وضحية منذ عام ١٩٩٢ إلي عام ١٩٩٦م.»

بعد أن اعترفت المنظمة الأممية بعضوية دولته المستقلة لها ولم يبق اليوم إلا أن تعلن بعض قرارات مجلس الأمن أن علي عزت بيجوفيتش مطلوب للعدالة.. مثل عيديد، بعد أن استباحت سراييفو وأحلت ماحرم الله من دماء أطفالنا وأعراض نسائنا وحولت قضايانا العادلة إلي مجرد مسائل لاجئين يحال ملفها تدريجيا من مجلس الأمن إلى وكالة الغوث الأممية المسؤولة عن اللاجئين ومديرته تلك السيدة اليابانية المحترمة، لتعالجها بما تجمعت من أغذية وأغطية وأدوية تلقي بها الطائرات الإنسانية فوق رؤوس المسلمين.

إننا عندما نستصرخ الضمير الإسلامي في الندوات أو في الصحافة نلاقي نوعين من رد الفعل من بني جلدتنا، الصنف الأول يضم الهازئين بنا: أولئك الذين يتخذون تحذيرنا هزءاً معتقدين عن حسن نية أننا نصرخ في واد غير ذي سمع، وكانوا يقولون لنا إننا نحرث في البحر وأن العصر طغى بالتكنولوجيا والقوى العسكرية وتم احتلال القمر والمريخ وعطارد، ونحن بالنسبة لهم عبارة عن دون كيشوت نحارب طواحين الهواء - في أحسن الحالات وأرفق الانتقادات - أما الصنف الثاني من أصل «علماني» نسبة إلى العلمانية فهم الذين يتهموننا بالتفسير الخرافي للتاريخ أو بالتفسير الأسطوري للعصر. ويقولون لنا: كلا وألف كلا فالعالم من حولنا لا يتآمر علينا ولا يريد بنا شراً.

ومع مر السنوات وتداول الأيام بدأت أصوات الصنفين تضعف أمام مرارة الواقع وصلابة الأحداث. بل التحق بنا العشرات من إخواننا أصحاب الموقفين السالفين وأصابهم لفح الشك بعد برد اليقين حينما رأوا بأعينهم كيف يسام المسلمون سوم الخسف وكيف تخطط الصليبية الجديدة لإبادة مئات الآلاف منهم في فلسطين المسلمة وفي البوسنة والهرسك المسلمة وفي كشمير وبورما وذربيجان، بل وكيف توضع الاستراتيجية الصهيونية لتطويق المد الإسلامي بكماشة شبيهة بتلك التي طوق بها الاستعمار دار الخلافة الإسلامية تمهيداً لبلعها في العشرينات من هذا القرن. نعم! رأى الضمير المسلم

عبر شاشات C.N.N طلائع المسلمين في مرج الزهور مبعدين مشردين عن ديارهم في هجرة هي أشبه بهجرة الجهاد والصمود، ورأى الضمير المسلم شهادات الأطباء والخبراء الإنجليز والفرنسيين وهم يقدمون حرائر بناتنا ونسائنا مسلمات البوسنة والهرسك بعد فواحش الاغتصاب الصليبي بهدف زرع الأبالسة في أرحامنا وانتهاك أعراضنا شماتة وقتلاً وقطع نسل نعم رأى الضمير الإسلامي كيف تهدم المساجد فوق المصلين وكيف تداس المصاحف الطاهرة وكيف تدك البيوت فوق ساكنيها وكيف يلاحق المسلم لأنه مسلم. **وتأكد العقل المسلم أي المثقف المتعلم أن الخطب جلل وأن الساعة دقت لإقرار تضامن إسلامي حقيقي وعميق وجوهري يحمي دار الإسلام.**

فهل بعد هذا يجرؤ بعضنا على رفع شعار عالمية الثقافة ودولية العلوم وحياد التقدم؟

المسألة بسيطة في عقيدتنا أننا لسنا نحن الرافضين للعالم من حولنا بل إن العالم من حولنا هو الذي يرفضنا. ولا يكتفي برفضنا فحسب بل هو يسعى للسيطرة على أراضينا وعقولنا والتمكن من وجداننا والتسلل إلي قلوبنا وتربيتنا وأخلاقنا وقيمنا بقصد إلغائنا من حركة التاريخ؛ فإذا كان العالم الغربي الطاغي يرفضنا فلا أضعف من إيمان من يعترف بنفسه وبأصوله وبهويته لحمايتها واستعمالها أداة للدفاع عن الذات وفرض الحقوق.

إنها أمانة جيلنا ومن واجبنا أن نؤديها بصدق بل من حق الأجيال القادمة علينا أن نؤديها حتى يأمنوا غائلة المحو

الحضاري من الخريطة ومن الذاكرة.

نعم! المسألة بسيطة في الحقل الفكري والثقافي. علينا العودة إلى ينابيع النهضة الإسلامية وابتكاراتها واختراعاتها، تلك التي نهل منها الأوروبيون أنفسهم وبنوا عليها بعد أن قطعوا بيننا وبينها. إن ازدهار الفكر الأوروبي قام على نظرية «دسكارت» الفيلسوف الفرنسي، بل إن المنطق العلمي الغربي كله يسمى بالمنطق الديكارتي ويعرف به. بينما ديكارت هو تلميذ الإمام الغزالي وكتابه «مقاصد الفلسفة» فلماذا يعرف جيلنا العربي المسلم «ديكارت» ويجهل الغزالي؟

وكذلك كل فلسفة «سان توماس داكن» الفرنسي التي قننت الفقه المسيحي لدى الغرب، معظمها مأخوذ من ابن رشد. فلماذا ندرس في معاهدنا «سان توماس» ونتنكر لابن رشد؟

أليس المنطق يدعونا إلى دراسة الأصول قبل الفروع؟ وإلى التدبر في الوادي قبل الجداول؟

أليس ابن مسكويه هو الذي درس وطور وأشاع أرسطو، وأضاف للفلسفة الإغريقية أبعادها الروحية أي أسند ذلك الفكر الغربي إلى الحكمة الإسلامية، ومن الثقافة الإسلامية انتقلت كل الفلسفة الإغريقية إلى أوروبا ثم أمريكا لتهندس نهضتها؟

ونحن نحمد الله أن سمعنا أصواتاً كانت مضادة لمدرسة الأصول والمنابع، تكلمت اليوم معنا وساندت رؤيتنا واقتنعت بمقولة مناعة الرح الأصيلة.

فبعد زكي نجيب محمود، هاهو المفكر المغربي محمد العابد الجابري يقرع ناقوس الخطر، ويتكلم بلسان الصدق في مداخلته بندوة الثقافة العربية التي نظمتها جامعة قطر.

ذلك هو طريق خلاص العالم الإسلامي مما يتخبط فيه فصدرية النجاة ليست بعيدة عن متناول أيدينا في هذا اليم المتقلب الهائج.

الماضي يفسر الحاضر

عندما أقرأ التاريخ الإسلامي قراءة التدبر والتفكر والاعتبار أكتشف بعض الحقائق التي تنير الحاضر وتوضح المصير، ومن هذه الحقائق أنه كلما انتعش الإسلام وكلما انتصرت روحه الخفية الكريمة إلا وجاء رد الجواب من الحضارة المسيحية عنيفاً ظالماً لا يستطيع حتى كظم الغيظ وبأسرع مايمكن وبأسلوب الوقاية خير من العلاج، فأرجعوا الأبصار أيها القراء الكرماء إلى أحداث تاريخية تروا فيها نفس الفعل ورد الفعل، نفس التسلسل ونفس المنطق.

أما مايجري اليوم على الساحة البوسنية أو على الساحة الفلسطينية فهو الذي يعزز هذا المبدأ الثابت للصراع بين الإسلام وخصومه.

في القرن الحادي عشر المسيحي وعام ١٠٧١ بالتحديد انهزم البيزنطيون على أيدي السلاجقة المسلمين في موقعة (ملازكرد) الشهيرة وأسس السلاجقة دولتهم متخذين مدينة

نيقية عاصمة لهم عام ١٠٧٨ وجاء الرد الصليبي عام ١٠٩٥ بعد ١٧ عاماً من ذلك الانتصار الإسلامي فألقى البابا يوربان الثاني خطبته المعروفة في مدينة (كليرمون) الفرنسية للدعوة للحرب الصليبية المقدسة ضد الإسلام وبدأت جيوش أوربا مجتمعة في الهجوم على نيقية ثم القدس الشريف ودامت تلك الحروب قرنين كاملين في ثماني حملات باءت بالفشل وعاد الشرق مسلماً إسلامياً واندحر الغزاة ثم جاء القرن الخامس عشر المسيحي وتم فتح القسطنطينية على أيدي السلطان محد الفاتح العثماني عام ١٤٥٣ فزلزلت أوربا زلزالها وجندت أثقالها وجمعت جيوشاً صليبية لضرب غرناطة آخر دويلة مسلمة في الأندلس ووقعت مذبحة من أكبر مذابح التاريخ شراسة ضد المسلمين عام ١٤٩٢ بعد أربعة عقود فقط من سقوط القسطنطينية.

ونأتي إلى القرن التاسع عشر لنجد نفس الفعل ورد الفعل، فقد شهد القرن الماضي يقظة الفكر الإسلامي فيما يسمى بالنهضة وظهرت المدارس الفكرية الاجتماعية تقارع الفكر المسيحي بالحجة وتستوعب العلوم الحديثة «الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي في المشرق وخير الدين باشا وابن أبي ضياف والشيخ إبراهيم الرياحي في المغرب» وسواهم كثير من حملة التراث الإسلامي المتجدد فما كان من أوربا إلا أن تجهز جيوشها لغرض الاستخراب (الاستعمار) وتضرب أركان ذلك

الفكر الإسلامي المتوهج قبل ضرب البنية الحضارية لأمة الإسلام. فكان الاستخراب العسكري والإداري والزراعي والثقافي هو رد الفعل وهو الجواب على نهضة العالم الإسلامي.

نفس الأسباب تؤدى دائماً إلى نفس النتائج. دورة التاريخ هي هي لا تتبدل كالسنة الطبيعية وكقانون البيولوجيا. من جهة صحوة الفكر المسلم ومحاولته فرض ذاته كآخر الأديان السماوية ومكملها ومصححها ومن جهة مقابلة ردة الفعل المتوحشة من جهة تقف ثقافة الإسلام صامدة فى عنفوانها الجامع ومن جهة ثانية يأتي جواب الحضارة المسيحية بالحديد والنار لا بالحوار؛ وهكذا نعيش اليوم ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين نفس التسلسل.

إن ماجرى في مدينة بيهاتش البوسنية هو الجواب الأوربي على حقوق المسلمين في أوربا وتلك الشراسة فى الإذلال والقتل والاغتصاب مرتبطة أوثق الارتباط بطرد فلذات أكبادنا من مدارس فرنسا بتهمة «غطاء الرأس» ومرتبطة بالاستقبال العظيم الذي خصصته فرنسا لفخامة رئيسة جمهورية الإلحاد والردة تسليمة نسرين[١] التي اندهشت هي نفسها في المطار

---

(١) تسليم نسرين من الجنسية البنغالية طبيبة. استطاعت ان تهاجم الإسلام وكانت اداة قذرة في يدى الغرب المسيحي. فاحتضنها واقام لها الاحتفالات الضخمة ومنحها الأوسمة بسبب محاربتها للإسلام كدين وعقيدة وحضارة وهي تعيش الآن في الغرب في السويد التي منحتها الجنسية السويدية مع كافة الحقوق للمواطن السويدي وهي مثل سلمان رشدي البريطاني الذي استضافه رؤوساء الغرب بالحفاوة والحماية لأنه هاجم الإسلام ومعتقداته. (المشرف)

للاستقبال الرسمي وللسجاد الأحمر المفروش ومنصة الشرف والخطب الرسمية والبرامج الإعلامية. وقد تابعت ذلك على القناة الفرنسية ورأيت هذه المسكينة عاجزة عن التعبير وذات ثقافة بسيطة محدودة ليس لها نصيب لا من معرفة الإسلام ولا من معرفة ثقافته وهي مستسلمة لهذه المهزلة المخزية غير واعية بما يصنع بها. كل تاريخ الإسلام مكتوب بهذا المنطق: عندما يعود للإسلام صفاؤه الأول ويسترجع تراثه السمح الكريم تأتي ردة الفعل هوجاء خرقاء. ولكن من قدر الفكر الإسلامي أن يظل قوياً لا القوة المادية بل القوة الثقافية المتمسكة بأصوله وهو دين الوسطية والاعتدال والحوار والشورى وسيظل كذلك إلى مايشاء الله رب العالمين.

الفصل الثامن

عبقرية المشروع الحضاري في القرآن

ويشتمل على :

- القرآن الكريم والمشروع الحضارى الإسلامي
- رؤية حضارية شاملة
- النظرية التأصلية والنظرية الاستئصالية
- من أسس الحضارة في القرآن

القرآن الكريم والمشروع الحضاري الإسلامي

إذا كانت معجزة محمد صلي الله عليه وسلم قد أُودعَتْ في القرآن فإن معجزة القرآن قد أُودعَتْ في المشروع الحَضاري الذي يطرحه، فهو مشروع متكاَمل غاية التكامل، استند إلى الإنسان روحاً وعقلاً ووجداناً واعتمد على تنظيم الحضارة اقتصاداً واجتماعاً وتربية وثقافة. فجاءت روعة المشروع الحضاري ناطقة بذلك الاندماج الموفق للإنسان في الكون. فالإنسان الفرد جزء من الإنسانية ومن البيئة في وقت واحد وهو بذاته عالم مستقل بعقيدته ومشاعره وعواطفه وأفراحه وأتراحه وانفراده بمصيره الشخصي كما أنه جزء غيرمنفصل عن الأسرة والمجتمع والوطن والأمة والبشرية يتفاعل مع مايطرأ على هذه الفضاءات ويصيبه مايصيب هذه الدوائر الانتمائية المتدرجة المتداخلة.

وأنت لو تأملت كل آية من الآيات المجيدة لوجدتها بمثابة حجر من الأحجار الكريمة يضاف لبناء ذلك الصرح الحضاري المعلن في القران، وربما تميزت آية من الآيات بأن حمّلها الله تعالى معنى عميقاً من معاني نشأة الحضارات أو سقوطها فإذا بك وأنت تقرأ القرآن بتدبر المؤمن تقف على سر من أسرار الحضارة وتكتشف أن مااهتدى إليه العلماء والباحثون والفلاسفة من بعد الوحي ماهو إلا تفسير لذلك السر أو محاولة لفهمه أو تبرير لحصوله في ميقاته المعلوم وليس كما يدعى

بعضهم ابتكاراً لنظرية من النظريات من عدم. أي أن العقل انطلق من الوحي وليس العكس. فالنظريات الحضارية المتعاقبة منذ فجرها فى أقوال الرسول الأعظم وفي سيرته وسيرة خلفائه والفكر الحضاري المؤسس لدولة الإسلام الأولى بالمدينة إلى اليوم مروراً بعلماء الإسلام ليست نظريات منبثقة من فراغ لأنك واجد لا محالة أصولها في آيات الكتاب المبين وإنما هي استنتاج العقل البشري الناظر إلى آيات الله سبحانه ﴿**فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾ [**فصلت**: ٥٣] وهي كذلك استقراء الذكاء البشري المحدود لعبقرية اللامحدود.

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً**﴾ [النساء: ١٧٤]

ولعل أمّ النظريات الحضارية في القرآن الكريم هي إحتواؤه على مبدأ سننية نشوء الأمم وانهيارها كحقيقة تاريخية قارّة وتولى الله سبحانه في كثير من الآيات الكريمة تفسير ذلك المبدأ بجملة من الشروط التي إذا توفرت أنشأت حضارة كالإيمان والعدل والخير وإذا انتفت انهارت حضارة:

﴿**وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)**﴾ [الحجر: ٤، ٥]

وهلاك القرية مثل حلول أجل الأمة كلاهما التعبير القرآني الحكيم عن انحدار حضارة ولا يكون ذلك إلا بفعل الناس

واختيارهم فهم المسؤولون عن أعمالهم خيراً وشراً: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]

فإنْ ظهور الفساد وشمولة لبرّ والبحر يحصل عندما تدبّ أسباب الانحدارالمتمثلة في الفساد الذي هو الانحراف عن الخط الإيماني والأخلاقي المستقيم وهو الناتج عما كسبت أيدي الناس.

والقرآن الكريم يقدم هذه النظريات الحضارية بقصد تربية المجتمعات وتذكيرها ودعوتها للاعتبار، فالنظرية تعرض بغرض بيداغوجي سياسي ينبه إليه الله تبارك وتعالى كقوله:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]

ونحسب أن التدرج من النشوء إلي الانهيار الذى نظّر له العلامة عبدالرحمن بن خلدون وأصبح من بعده مدرسة في فقه التاريخ وعلم العمران إنما انطلق من النظرية الحضارية الكامنة في القرآن والمبثوثة في عديد الآيات عندما يستعرض الله سبحانه مراحل حياة الإنسان أو مراحل حياة مايسميه القرآن (القرون) أو (الأمم) أو (الذين من قبل) أي حياة الحضارات المتلاحقة المتعاقبة:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]

وإن الدليل على أن القرآن المجيد يوازي بين الأفراد والأمم

هو استعماله لعبارة الآجال عند الحديث عن الإنسان أو الأمة مما يستدرج الباحث المسلم إلى مقارنة المصائر المتشابهة لدى الإنسان ولدى الأمم من ميلاد وضعف إلى قوة وفتوة وشباب إلى ضعف وشيبة ثم إلى فناء مع مايقتضي عمر الإنسان وعمر الأمم من تدافع وصراع في سبيل البقاء والاستمرار مع فرق بين القاعدة القرآنية القائلة بالبقاء للأصلح وبين القاعدة الطبيعية القائلة بالبقاء للأقوى، وهنا فرق أساسي بين قوانين الحضارة في الإسلام وقوانين الحضارة في غير الإسلام. وانك لواجدٌ في آيات القرآن بياناً للأسس التي يفترض أن يقام عليها بناء حضارة كريمة: ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [التوبة: ١٠٩]

ويحدد الحق تبارك وتعالى تلك الأسس سورة بعد سورة وآية بعد آية حتى يتجلى لقارىء القرآن مشروع حضارى متكامل مقام على أسسه الراسخة ويسنده الله سبحانه إلي تسلسل تاريخي متماسك المنطق متعاقب الأحداث يجعلك تشعر بأن في القرآن قصة للحضارة من أروع وأعظم القصص وتوقن أن كل ماخطته عقول البشر من اجتهادات في علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم السياسة ينبثق من ذلك الينبوع الأول: ينبوع الوحي.

﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً** ﴾
[الإسراء: ١٠٥]

هل المشروع مفقود؟

«إن الإسلام موجود ومشروعه الحضاري مفقود» هذه هي الجُملة التي ظلت تطرق أبواب فكري وتلح على خاطري كالطيف خلال هذه السنوات العشرة الأخيرة وأذكر أنني نطقت بها في مناسبات أو ندوات عديدة فلم أجد من الزملاء الذين سمعوها مني أي اعتراض وهم من صفوة العلماء في المشرق أو في المغرب الإسلاميين.

واقتنعت مع الزمن أن هذه الجملة القصيرة المفيدة اختزلت حقيقة جوهرية أو بعضاً من الحقيقة وعبرت ببساطة لغوية عن هموم مفكري الإسلام وشجونهم.

فالكل يرى الإسلام حيّاً شامخاً عزيزاً منصوراً بالله تعالى ولكن الكلّ واثق من تقصير المسلمين في الاتفاق على مشروع لاكتساح المستقبل والانتصار أمام التحديات المختلفة الكبرى.

رؤية حضارية شاملة

وحتى لا نظلم الناس ونكون من المنصفين فإن الراصد للعمل الفكرى والجامعي والثقافي الإسلامي يكتشف كمّاً هائلاً من الكتب الثرية والعلمية يتناول بعضها الاقتصاد الإسلامي وبعضها التاريخ الإسلامي وبعضها الإعلام الإسلامي وبعضها استراتيجية الإسلام وبعضها الشريعة الإسلامية والقانون وبعضها التربية الإسلامية وهي مجهودات تصدر عن زملاء متخصصين وأكفاء ويضيء كل كتاب جزءا من مساحة المشروع

الحضاري لكنه لا يرسم معالم المشروع كاملاً.

وأعتقد واثقا أن الشباب المسلم المتحفز للمعرفة يحتاج إلى رؤية شاملة متكاملة لما عسى أن يكون عليه المستقبل انطلاقاً من المعطيات المتوفرة لدينا في مختلف قطاعات المجتمعات المسلمة.

يقول فضيلة الشيخ العلامة يوسف القرضاوي في كتابه الأخير **(نافذة على الإسلام)** في مثل هذا الأمر: «فلم يكن كل ماقالته هذه المذاهب والنظريات باطلاً، كما لم يكن كله حقاً. إنما عيب كل نظرية أنها نظرت من زاوية وأغفلت أخرى، واهتمت بجانب على حساب جانب آخر. وهو أمر لازم لتفكير البشر، الذى يستحيل عليه ان ينظر في قضية ما نظراً يستوعب كل الأزمنة والأمكنة وكل الأجناس والأشخاص وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة اله عليم حكيم. فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام جامعة محيطة مستوعبة لأنها ليست نظرية بشر بل وحي من أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً...».

انتهى كلام الشيخ يوسف أما العبرة منه في المجال الذي نحن بصدده فهي حاجة المسلمين الى رؤية حضارية شاملة لعل جيل الشباب من أبنائنا سيتولى صياغتها وتشكيلها مما وهبه الله من صحوة مباركة وذلك عمل صالح عاجل لإرساء أسس المشروع الحضاري الإسلامي المنشود.

فالإسلام والحمد لله موجود ثابت خالد لكنه يفتقر إلى فقه

حضاري. قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]

فالدين القيم مكانه القلوب ولا اختلاف على عظمته لكن الإقرار بأن أكثر الناس لا يعلمون هو إقرار بقول إلهي حكيم لا ينقص من الدين ذاته شيئاً بل يستنفر همم المسلمين لوضع فقه حضاري للإسلام يكون رديفاً ومؤازراً للفقه الإسلامي العام الذى نعرف أصوله وفروعه وهو يؤدي رسالة صيانة الإسلام مدى الأيام.

فالمطلوب في هذه المرحلة من صحوة الفكر الإسلامي هو أن نحاول جميعا إضفاء صبغة الله على مشروع حضاري إسلامي، تلك الصبغة التي دعانا الله إلى نطبع بها نهضتنا: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ولعلنا لا نخطأ إذا وضعنا في هذه الخانة منظومة الجهود العلمية الخيرة التي تهدف إلي مايسمى أسلمة العلوم الإنسانية والصحيحة أي في الواقع استنباط منطلقات الوحي في كل ماتوصل العقل البشري الى اكتشافه. لأن العقل لا يخلق علماً ولا نظرية إنما هو يدرك بعض قوانين الكون التي خلقها الله تبارك وتعالى في الآفاق وفى أنفسنا كالجاذبية أو الموجات الصوتية أو ليزر الأطياف الضوئية أو تخزين المعلومات أو استعمال الطاقة عن حركة العلم العالمية، وهي بالتالي عملية تأصيلية.

يقول الدكتور توفيق يوسف الواعي[1] .

«صحوة الأمم الإسلامية اليوم تحتاج إلي هوية وإلي تأصيل ، لأن أمة تريد أن تنهض أو تتقدم لا بد أن تغرس في تربيتها وزرع في أرضها وتستقي من نبعها حتى تكون النبتة آمنة باسقة تؤتي أكلها لأهلها وذويها وتحمل نكهتهم وتصطبغ بلونهم ، أما أن ترضع أمة لبان أخرى فإنها تكون ابنة لها من الرضاع ، أما أن تتزوّد أمة بفتات غيرها وتنهل من ثقافتها وتتسربل بزيّها فإنها ولا بد أن تكون ذيلاً أو تابعاً مقلِّداً ومحاكياً ، تفقد الطعم واللون والرائحة وتظل ترسف فى أغلال التبعية والاستعمار «وإن نُصبت لها رايات وحُددت لها حدود . . » انتهى كلام الدكتور الواعي .

إن هذه النظرية الحضارية التي نسميها تأصيلية هي اليوم الأكثر شيوعاً فى أمتنا الإسلامية وهي النقيض للنظرية الحضارية الاستئصالية التي تهدف إلى تذويب مقومات النهضة المسلمة فيما يسمى العالمية ولن يتم لها ذلك إلا باستئصال جذور الإسلام المتميزة وهي ترفع بالفعل شعار عالمية المعرفة وعالمية العلم وعالمية التقدم لكنها في أعماقها الباطنة لا تعترف بقدرة المسلمين على الاسهام في دفع عجلة التاريخ بما أتاهم الله من كفاءات بشرية وثروة طبيعية ووزن استراتيجي عبر عنها القرآن الكريم بعبارة الاستعداد بما استطعنا من قومن ومن رباط الخيل .

---

(١) من مقدمة كتاب (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية) نشر دار الوفاء ١٩٨٨ .

وهي كلها اليوم طاقات مهدورة أو مسلوبة لا تصبّ في وادي الإسلام والمسلمين وإنما في أغلب الحالات تستعمل سلاحاً ضدهم وتوجه لقمعهم وتوظف لتشتيت صفهم وخضد شوكتهم مثلما شاهدنا في حرب الخليج الأولى وحرب الخليج الثانية وهما متصلتان غير منفصلتين وأهداف الأولى كأهداف الثانية مهما اختلفت الجزئيات وتباينت السيناريوهات وتعالت الشعارات.

النظرية التأصيلية والنظرية الاستئصالية

وإني على ثقة من أن القرن الخامس عشر الهجري الذى قطعنا فيه شوطاً سيكون إن - شاء الله - قرن انتصار كامل للنظرية التأصيلية على النظرية الاستئصالية وذلك لأسباب موضوعية تاريخية لا مجال للعواطف فيها هي بالأساس أسباب عقلية ومنها:

شهادتنا في ظرف جيل واحد (من ١٩٦٧ إلى ١٩٩٧) على انهيار صروح الأيديولوجيات صرحاً بعد صرح من الإمبراطورية الشيوعية إلى الشعوبية القومية (وأقصد هنا القومية العلمانية التي تدعى تعويض الهوية الإسلامية لا تلك القومية التي تعتبر نفسها قوة للأمة وقدوة) إلي الطائفية الوطنية (تلك التي ترفع الوطن فوق الانتماء للأمة) إلى المادية الجدلية (تلك التي تخضع سلوك الإنسان للغرائز ومصيره للمادة والربح السريع) إلى الانبهارية الغربية (تلك التي نتجت عن عمليات التشويه التغريبية في التعليم والثقافة).

وأحسب أن العالم استيقظ بعد انهيار جدار برلين على حقائق جديدة قائمة في طليعتها استحالة تحقيق الحضارة من دون سندٍ روحي وايماني قويّ يعطيها معناها ويمنحها فحواها ويجعل للإنسان هُدًى.

كما أن الجيل المسلم الراهن استيقظ على سقوط الأنموذج الغربي للنهضة وهو الأنموذج الذى ظل المستشرقون من رجال الغرب والمستغربون من رجال الشرق على مدي قرن كامل يمهدون له ويروّجونه كسبيل وحيد فريد للتقدم.

والحمد لله الذى يسر لهذه الأمة علماء نجوا من المحق والاستبداد منذ مانسميه عصر النهضة في القرن الماضي ليعيدوا مياه الحضارة الإسلامية إلي مجاريها الصافية الدافقة ويعلنوا رفضهم للمشروع التغريبي المنحرف ويرفعوا لواء المشروع الحضاري الإسلامي عالياً وسط المؤامرات والمخططات والتحالفات التي كانت تتلاحق وتتواصى بالباطل وتهدف الى تدمير روح المقاومة للاستخراب الغربي (الملقب بالاستعمار) **وكانت النتيجة أن غيّر الاستخراب شكله وبدّل أصباغه وقدّم للعالم الإسلامي بديلاً عن الإسلام في شكل استقلالات وطنية منقوصة وملغومة بقنابل موقوتة هي قضايا الحدود والمياه والنفط والقوميات.**

وتلك المخططات نجحت إلي حد بعيد في زرع بذور الفتنة وسقيها حتى تنبت أشجاراً لعينة من الصراع والاستبداد والتدخلات الأجنبية.

يقول الدكتور أحمد إبراهيم مهنا[1] عن هذه الحالة: (وعلى الرغم من ضراوة المعركة وبالرغم من أن الجانب المسلم قد بلغ به التعب مبلغا يدعو إلي اليأس، إلا أن القبس الإلهي كان دائماً يرسل شعاع الأمل ويؤذن بفجر الرجاء ماكان للمسلمين أن ييأسوا وقد وعد من لا يخلف الوعد بحفظ كتابه وهو نبراسهم ومصدر عزتهم. وبدأت الغمة تتقلص وأخذ كثير من المسلمين يفيقون مما أصابهم من دوار وارتفعت صيحات الاستغاثة تطالب القادة والعلماء لإنقاذ القافلة.. وقد كان لهذه الصيحات وماانتجت من استجابات أثر لا يمكن إنكاره. فقد تحولت دفة السفينة ولو قليلاً نحو الطريق السوي..».

ومن الأسباب العقلية كذلك شهادتنا في هذا الجيل على بداية ثورة أخلاقية عارمة شملت العالم بأسره بدون استثناء وثبت أن القيادة والريادة فيها للإسلام، ولا رمز أروع لتلك الثورة الأخلاقية من اجتماع مظاهرة المليون مسلم أمريكي في واشنطن في شهر ديسمبر ١٩٩٦ بزعامة (لويس فرقان) فكانت رجة بعيدة الأثر في هيكل المجتمع الأمريكي ذلك المجتمع الذى يروم العودة للقيم المؤسسة للجمهورية الأمريكية وجاء كتاب المفكر الأمريكي (ادوارد باهر) بعنوان (من الذى يخاف أمريكا[2]) والذى صدر عام ١٩٩٥ ليعلن أن ذلك المجتمع أشد هشاشة مما يتصور الرأى العام العالمي ومصاب بعصاب العصر وانفصام الشخصية بل هو يبحث عن خلاص في غير ترسانته

---

(١) في كتاب (الإنسان في القرآن الكريم) طبع مجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٧١.

(٢) صادر مترجما للفرنسية في دار (دبلون) باريس.

العسكرية أو قوته الاقتصادية أو سياسته الإمبريالية.

أما السبب العقلي الثالث فهو انفراد الإسلام بميزة كونه دين حضارة لأنه الدين السماوي الموحد الوحيد الذي ينظم العلاقة بين الإنسان وخالقه وبين الإنسان ونفسه وبين الانسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان ومجتمعه وبين الإنسان وكونه.

دين حضارة

هذه هي المستويات الخمسة التي تجعل من الإسلام دين حضارة لا دين عبادة فحسب ولا دين سياسة فحسب فقد جمع بين العبادات والمعاملات جمعاً كريماً؛ بل لقد حاولنا في كتاب (الإسلام وصراع الحضارات[1]) أن نبين أن العبادات هى أصل المعاملات أي كل شؤون حياتنا تخضع لمنظومة قيم ومثل فاضلة تسبقها وتمهد لها وتمليها بفضل التفريق بين الحلال والحرام وبين الخير والشر وبين الحق والباطل.

أما السبب الثالث فهو ماظهر بوضوح منذ الثمانينات من هذا القرن في مجال اتحاد القوى الإيديولوجية العالمية ضد مصالح المسلمين وضد اتحادهم. فقد بدأت الهجمة الصليبية الحديثة منذ دخول خيل نابليون للأزهر الشريف عام ١٧٩٨ وتواصلت عبر الاحتلال الاستخرابي الأوروبي للمشرق والمغرب الإسلاميين مروراً بتفكيك الخلافة العثمانية ودامت قرنين. لكن تلك الهجمة كانت تقاومنا بمفردها ثم انضمت لمقاومتنا

---

(١) صدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر - مايو ١٩٩٥

الإيديولوجية الشيوعية بمفردها كذلك وكانت كل منهما تعادى الثانية من حسن حظنا. ثم أضيف العنصر الصهيوني منذ الثلاثينات بشراسة وواجه الإسلام أهداءه الثلاثة: الاستخراب الأوربي والتدمير الشيوعي والأخطبوط الصهيوني كل على حدة وكل حسب مصالحه.

ولكن الثمانينات جاءت بظواهر حضارية غريبة تمثلت في انهيار الإمبراطورية الشيوعية واندماجها في الإمبراطورية الليبرالية التي تقودها أمريكا وتبني هذه القوة للطروحات الصهيونية ومشروعها القديم لقيادة ماتسميه الشرق الأوسط الجديد[1].

كانت الظاهرة الحضارية الأوضح التي جاءت مع الثمانينات إذن هي ظاهرة اندماج القوى المعادية الثلاثة: الهيمنة الغريبة والفكر الشيوعي الملحد والاحتلال الصهيوني لمواجهة الإسلام ومصالح المسلمين. بعد أن انفردت بنا كل قوة على حدة على مدي أجيال.

ولعل بعض القراء يقول لي: لم تعد هناك قوة شيوعية؟! والجواب هو نعم لأن الشيوعية انزاحت عن الحكم المباشر ولكن الإيديولوجية المادية الماركسية بدأت تعود لمواقع السلطة بالانتخاب (بولونيا وبلغاريا والمجر وكثير من جمهوريات وروسيا) كما أن للإمبراطورية الشيوعية سابقاً قوة

---

(١) عنوان كتاب شيمون بيريز رئيس حكومة اليهود السابقة وهو في الواقع الجزء الثاني لكتاب تيودور هرتزل (الدولة اليهودية الصادر عام ١٨٩٦.

عسكرية وتكنولوجية وصناعية هي اليوم تحاول الانخراط في حلف الناتو. كما أن صعود اليمين القومي المتطرف في روسيا على يد زعيمه فلاديمير جيرينوفسكي لا يقل خطراً على الإسلام من المد الشيوعي المقبور.

ولا بد للإسلام أن يُنْشأ فقْهاً حضارياً جديداً يأخذ مأخذ الجد والدراسة هذه المعَطيَات عوض السعي الأعشى نحو الذوبان بتعلات الوطنية الضيقة أو التقدم أو القومية المناقضة للأمة.

من أسس الحضارة في القرآن

وإننا واجدون في القرآن الكريم تطبيقاً للنظرية الحضارية على مشكلات الهيمنة: هيمنة الطاغوت على الناس أو هيمنة أمة على أمة.

ففي سورة غافر وحدها يوجز الحق سبحانه وتعالى قصة فرعون مع موسى التي هي قصة الشر يقارع الخير ويمنعه ويحاول صده؛ فما أشبه فرعون بأى طاغية معاصر يستعمل أدوات الاعلام للتضليل ويحجب الحقائق عن شعبه:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾ [غافر: ٢٩]

ففرعون لا يُري شعب مصر إلا الذى يراه أي أنه يكيّف عقول الناس بالإعلام المضلل ويجعلهم عمياً إلا عن الحقيقة الرسمية التي يصوغها وبطانته.

فتأملوا ماأروع عبارة **(ماأريكم إلا ماأرى)** التي يمكن بيُسْرٍ

أن نطلقها اليوم على كل من استبد برأيه وفرضه على الناس بالقمع. ثم تمضي سورة غافر لتضرب الأمثال بالسننية الالهية التي يسير الكون حسب قوانينها ونواميسها:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]

ومن العناصر الحديثة في نظرية القرآن الحضارية اختلاف معاني المصطلحات حسب إرادة الاستبداد فعبارة الفساد يمكن لفرعون أن يطلقها على الإيمان والصلاح:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وهنا يضيف الطاغية فرعون إلي التعتيم الإعلامي عنصراً آخر هو تحريف الكلمات عن معانيها واستعمالها في عكس مواقعها؛ فالفساد الذي هو متعارف على مضمونه يصبح هنا مشيراً لهداية الناس لدين الله من قبل أحد أنبيائه الخلص. وإن الذي يتأمل اليوم في السقوط العربي الحضاري يكتشف أن من أسباب هزائمنا تحريف الكلم عن مواضعه بقصد التضليل وعدم اتفاق العرب على معاني موحدة للمصطلحات المتداولة والأمثلة أكثر من أن تحصى ويكفي أن تسمع لبعض إذاعات العرب وتقرأ صحفهم لتتبين أن الأبيض أسود وأن الليل نهار وأن الحق باطل.

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة في هذا المجال[1]: (لا بد من التنبيه إلى ضرورة المحافظة على المصطلحات في الأمة والاحتفاظ بمدلولاتها والعمل على وضوح هذه المدلولات في ذهن الجيل لأن هذه المصطلحات هي نقاط الارتكاز الحضارية والمعالم الفكرية التي تحدد هوية الأمة بما لها من رصيد نفسي ودلالات فكرية وتطبيقات تاريخية مأمونة، انها أوعية النقل الثقافي وأقنية التواصل الحضاري. وعدم تحديدها ووضوحها يؤديان إلي لون من التسطيح الخطير في الشخصية المسلمة والتقطيع لصورة تواصلها الحضاري...».

وأضاف الأستاذ عمر عبيد حسنة في نفس السياق قائلاً: «وقد نبه القرآنالكريم لهذه القضية الخطيرة عندما أرشد المسلمين إلي ضرورة استخدام مصطلح (أنظرنا) ونهى عن مصطلح (راعنا) الذى كان يستعمله يهود ليحققوا فيه أغراضاً في نفوسهم. قال تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٠٤]. انتهى كلام الأستاذ عبيد حسنة.

ولعل أيضاً من الاهتمام الأقصى بمعاني المصطلحات ومضمون العبارات الذى يميز كتاب الله العزيز أن يضع الله تبارك وتعالى الكلمة الأنسب عوض الكلمة الأقل أداءً للمعنى

(١) من مقدمة كتاب (المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري - سلسلة كتاب الأمة (قطر) للدكتور محسن عبد الحميد.

ومثل ذلك قوله سبحانه :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ولَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٤] .

هذا وإن من أكبر معاني النظرية الحضارية الإسلامية في القرآن معنى العدل وتتجلى تلك الأولوية التي أعطاها القرآن للعدل في ذكر الظلم ومشتقاته ١٩٦ مرة في الكتاب المجيد وورد ذكر الظالمين على مستوى الإنسان الفرد مثل قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص : ١٦]

وعلى مستوى القوم مثل قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة : ٥٤]

وعلى مستوى القرى – وهي المفهوم الحضاري لشعب أو لأمة في القرآن – مثل قوله جل من قائل : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : ١١٧]

وقد قرن الله تعالى الكفر بالظلم واعتبار الكفر والظلم شيئا واحداً : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

في حين يعتبر سبحانه العدل والإيمان شيئا واحداً فلا يستقيم أحدهما بدون الآخر ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٨١] .

بل إن الله تبارك وتعالى يعطي صفة العدل للقرآن: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وتلتحق بهذا الموكب الآيات الكريمة الذاكرة للميزان والقسطاس والشورى لتؤكد على قيمة العدل السامية في السياسة والاقتصاد والتربية والأسرة كمنهج حضاري لسلوك سبيل الإسلام. وبلغ الإسلام في هذا الخيار مبلغاً فريداً لم يبلغه أى دين. أي إقامة حضارته على العدل المطلق.

الفصل التاسع

مَنْ أجهض مشروع الوحدة الإسلامية مابين الحربين؟

ويشتمل على :

- جهود مكثفة لاجهاض المشروع الحضارى
- أفكار مستشرق من صفحات كتاب
- القوة الثانية في العالم الإسلامي
- روسيا والعالم الإسلامي

جهود مكثفة لاجهاض المشروع الحضاري

جستُ خلال كتاب محمد حسنين هيكل الأخير حول جذور الصراع العربي الإسرائيلي منذ القرن الماضي وخلال كتاب آخر من الكتب القيمة كبيرة الفائدة وهو مكتوب من طرف مستشرق ألماني اسمه (باول شمتز) سنة ١٩٣٩م وهو بعنوان (الإسلام قوة الغد العالمية) نقله إلى العربية الدكتور محمد شامة وطبعته مكتبة وهبة عام ١٩٧٤م بالقاهرة.

فما أكثر الفوائد التي يحصل عليها طالب المعرفة العربي حين يقرأ هذين الكتابين وبينهما من الزمن سبع وخمسون عاماً. خاصة ونحن نرى ما عليه العالم العربي من وهن وشتات وانعدام رؤيا وسراب مستقبل. أكثر من نصف قرن تفصل بين كتاب المستشرق الألماني الذي تكهن بمصير عظيم للإسلام وكتاب محمد حسنين هيكل الذي يحاول رسم خرائط الهزائم العربية والاحباطات العربية والتي جاءت أحداث فلسطين الأخيرة لتكريسها وتجسيدها وإبرازها تحت الشمس الكاشفة. الكتاب الألماني كتاب عجيب لابد أن يطلع عليه كل من لا يعرفه في رأيي فهو من تحرير مثقف أوروبي غير منحاز عاش في القاهرة زمناً ويقدم الناشر الألماني هذا الكتاب عام ١٩٣٩ بقوله:

«باول شمتز يعرف جيداً الأسس التي ينبثق عنها تطلع الشعوب الإسلامية إلى الاستقلال وهذا لكتاب يوضح الخطر المتوهج الذي يمر عليه الإنسان في أوروبا بكل بساطة وفي غير

اكتراث؛ فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم (١٩٣٩) في جبهة واحدة معادية للغرب بينما الغرب نفسه لا يستطيع سوى أن يعرض تمزقه عبر الحدود تجاه هذه الإرادة الحازمة. وهذا الكتاب هو نداء وتحذير من أجل مصالح الغرب وحدها. . . »

هكذا يقدم الناشر لهذا الكتاب ويمضي المؤلف في ٣٣٠ صفحة يعدد مظاهر القوة والتضامن والوحدة التي تميز العالم الإسلامي قبل تقطيع أواصر الخلافة العثمانية وأثنائها وبعدها.

وأبرز ما يخرج به القارىء بعد مطالعة الكتاب هو **أن القوى الأوروبية والولايات المتحدة على أثرها كانت جميعها تعيش هاجساً كبيراً مؤرقاً اسمه التضامن الإسلامي وكانت وزاراتها للخارجية ووزاراتها للحربية ومخابراتها وجامعاتها تتدارس قضية أساسية اسمها احتمال بروز المشروع الإسلامي السياسي والحضاري كقوة عظمى في المستقبل.**

عندما تنتهي من مطالعة الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب القيم تتأكدأن أهم نسبة من اهتمام أوروبا الإمبريالية منذ مطلع القرن التاسع عشر كانت تتمحور حول ضرورة إجهاض المشروع الإسلامي بكل الوسائل فمن الضرب بالقوة العسكرية إلى تدمير الوجدان الديني ومن الغزو الحربي إلى تشتيت الصفوف ومن شراء الضمائر إلى إشاعة الفساد. كل المخابر السياسية والعسكرية والثقافية استُنفرت في هذه العمليات.

منذ هزيمة الحملة الفرنسية البونابرتية على مصر ومنذ حرب الاستخراب في الجزائر عام ١٨٣٠م وسحق ثورة الأمير الشاعر عبد القادر الجزائري عام ١٨٤٧م بدأت الخلافة العثمانية في

عهد محمود الثاني تردّ بقوة على هجمة إنجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا التي تضامنت جميعها بمعاهدة ١٨٤٠ لتوحيد سياساتها بإزاء الباب العالي لكن السلطان محمود انتهى إلى الاعتقاد الخاطىء بأن إصلاحات يمكن إدخالها على الردارة والقضاء في الدولة العثمانية ويمكن أن تستجلب من أوروبا بحذافيرها (مثل قانون المساواة عام ١٨٥٦) وتأسس البنك الإمبراطوري العثماني وخرجت روسيا عن تلك المعاهدة فأعلنت حرب القرم واستنزفت الدولة العثمانية حتى اضطر إلى الديون وبلغت حد الإفلاس عام ١٨٧٥ وتواصل هذا السعي إلى أسفل سافلين إلى أن جاء السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٦م فغير هذه المعادلة حضارياً وتيقن أن قوة الدولة العثمانية الإسلامية لن تعيش إلا متى استندت إلى الإسلام وكان لعبد الحميد فضل قلب تلك المعادلة الجائرة ورفع راية الهلال في مواجهة الصليب الذي لم يكن مسالماً بل كان مهاجماً.

وكان الأمر في مصر قريباً من أمر تركيا.. فقد جاء محمد علي ليقطع الصلات بينه وبين الخلافة وجلبت إصلاحاته الأوروبية على مصر سلاسل التبعية بسبب النظم المستوردة واستفحل الاستخراب الأوروبي حتى فقدت مصر سيادتها واستقلالها عام ١٨٨٢ عندما احتل الجيش الإنجليزي مصر بعد أن قصف الإسكندرية بمدافعه.

ولم يكن الأمر مختلفاً في إيران حيث اتخذت مملكة القاجاريين تقريباً نفس المسار وجاءت عام ١٨١٧ بعثة عسكرية من انجلترا وفرنسا للعمل كخبراء في الجيش الإيراني وفقدت

إيران كل ما تملكه في القوقاز والقرغيز وأرمينيا ونقل الشاه ناصر الدين قشور الحضارة الأوروبية دون جوهرها.

أما الأمر في المغرب الإسلامي فكان استعماراً مباشراً فجّاً ورهيباً ومبيداً للناس وللثروات وللحضارة وجاءت الوطنية الضيقة تصادر الجهاد بمفهومه الإسلامي وتعوضه وتأخذ مواقعه واطمئن الاستخراب إلى أن صوت التضامن الإسلامي قد أصبح خافتاً بل غائباً.

وأن قوى حضارية جديدة ولدت من رحم الحضارة الأوروبية سوف ترشح إلى أخذ مواقع القيادة في معارك التحرير ومعارك بناء الدول المستقلة وأن هذه القوى الجديدة بنت شرعية للثقافة الأوروبية بما فيها من جذور مسيحية ورداء علماني واستأنست لها وأهلتها للقيادة وبنفس الاطمئنان ساعد الاستخراب البريطاني والفرنسي تلك النخب الوطنية في المشرق العربي ورفع لها هناك راية القومية العربية كما غذى في تركيا القومية التركية وفي إيران القومية الفارسية وتقرر منذ مؤتمر (سايكس - بيكو) في مارس من عام ١٩١٦ الاستنجاد بقومية أخرى غريبة عن المنطقة هي القومية الصهيونية لزرعها بين هذه القوميات المتوهجة المتناحرة لكن مع حقن الدين اليهودي كقاعدة انطلاق تأسيس دولة يهودية وسط قوميات مستنفرة يجمع بينها الإسلام.

ولهذا السبب اتجهت الدراسات الاستراتيجية والجامعية والعسكرية والاقتصادية لاكتشاف أسرع الطرق المؤدية إلى إضعاف هذا العنصر الجامع بين القوميات أى الإسلام وإحلال

الانتماءات القومية محل الانتماء العَقَدي الذي أثبت التاريخ أنه الوحيد الأبقى والأصمد وأن التمسكَ به هو الضامن الأوحد للقوة العادلة والمتوازنة والدائمة.

أفكار مستشرق من صفحات كتاب

من خلال قراءة التاريخ الإسلامي بأقلام أوربية - مثل قلم (باول اشمتز) - يعرف المرء أكثر مما يعرفه من أقلام المسلمين والعرب في أحيان كثيرة والسبب هو أن المستشرق الأوروبي إذ يكتب ويفكر ويلاحظ إنما هو يسجل ما يعتقده خطراً على مصالح أوربا الإمبراطورية فيرصد دون أن يدري مواطن القوة والعظمة في حضارة الإسلام ويسلط أضواء كاشفة على مواقع التضامن والاتحاد لدى المسلمين مُعْلناً في كتاباته أن الخطر قادم. وإذا استثنينا هذا الخوف والتهويلَ المبالغ فيهما فإننا نعثر على نظرة طرفة لحضارة الإسلام من خارجها وبعقلية أخرى معادية في أكثر الأحيان غير مشوبة بعصبية أو انحياز أو عاطفة بطبيعة الحال.

وقد ساعدني كتاب (باول شمتز) على الإجابة عن سؤال يلح عليَّ من زمان هو: هل يئس المسلمون من الوحدة الإسلامية من جراء صدمة القضاء على دولة السلطان العثماني أمْ إنَّهُمْ اعتبروا تلك الصدمة المأساوية استنفاراً للإسلام وشعوبه حتى ينهضوا بعد كبوة فيجمعوا شتاتهم لمواجهة تحديات تلك الفاجعة واستخلاص دروسها القاسية؟

واكتشفتُ أن عقيدة الوحدة الإسلامية لم تضعف ولم يهن

المسلمون بالرغم من التخطيط الجهنمي الذي كان يستهدفهم. فقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ونظيرتها السنوسية في المغرب العربي تقاومان الاحتلال وتفكر كل منهما في إقرار الخلافة الإسلامية ولم يفشل مؤتمر مكة عام ١٩٢٦ إلا بسبب فتور مصر عن مساندته فملك مصر فؤاد كانت له طموحات شخصية لخلافة المسلمين ولعلّ أهم ظاهرة في العشرينات كانت موافقة الهند بسبعين مليون مسلماً على إقرار الخلافة قبل استقلال باكستان.

وجاءت معاهدة الاتفاق بين تركيا وأفغانستان وإيران عام ١٩٢٨ تنسق بين هذه الشعوب المسلمة الثلاث في مجالات عسكرية واقتصادية وثقافية مؤكدة أن تركيا بالرغم من قيام جمهورية أتاترك العلمانية ظلت متمسكة بالتضامن الإسلامي كخيار استراتيجي؛ بل ان الأمر بلغ عام ١٩٣٢ حدّ التفكير في اتفاق وحدوي بين تركيا وإيران والعراق حالت دون التوصل إليه مشكلات الحدود بين إيران والعراق عند شط العرب حيث يصب دجلة والفرات كما حالت دونه حكومة بغداد الموالية للإنجليز وسياسة لندن كانت - وربما ماتزال - ضد كل توجه لأى تقارب إسلامي.

وعندما وقع انقلاب عام ١٩٣٦ في بغداد وانشغل الإنجليز بصراع ضد إيطاليا بسبب حوادث إثيوبيا فقد انعقد تعاون وثيق بين تركيا والعراق تجسد في بناء خط بغداد الحديدي والتحق ضباط أتراك لتدريب الجيش العراقي.

وجاءت المعاهدة الإسلامية المتميزة عام ١٩٣٧ يوم ٩

يوليو لتتوج هذه التوجيهات فجمعت كلاً من تركيا وإيران والعراق وأفغانستان فيما يمكن أن نطلق عليه اليوم اسم حلف إسلامي لأن عقيدة الوحدة الإسلامية زينت ديباجة هذا الحلف وأعلنت بوضوح فلسفة الوحدة وأهدافها.

ومن العجيب أن كل مواثيق التعاون بين شعوب عربية لم تكن تخرج عن إطار الوحدة الإسلامية الشاملة ولم ترفع أى من هذه الاتفاقيات العربية شعار القومية العربية مثل معاهدة التحالف السعودي العراقي والتي انضمت إليها حكومة اليمن عام ١٩٣٦ وهو من نوع التحالف الفيدرالي.

وفي هذه الأثناء استقلت مصر وأنشأت مجالات واسعة من التعاون مع تركيا ودعمت علاقاتها بالتحالف السعودي العراقي اليمني بينما اشتعلت نار الثورة الإسلامية في فلسطين وكان أحد قادتها الشيخ الشهيد عز الدين القسام.

ويعلق (باول شمتز) على هذه الروح فيقول في صفحة ١٧٥ : «ازداد التعاون الثقافي العلمي بين البلاد الإسلامية ونشطت حركت تبادل الخبرات بينها فقوي الشعور بوحدة المصير ونمت الرغبة في تنسيق العمل في جميع الميادين فقد انعقد مؤتمر الأطباء المسلمين في القاهرة وانعقد مؤتمر المهندسين المسلمين في أنقرة عام ١٩٣٩ للاحتفال ووضعت مصر للاحتفال بالعيد الألفي لعاصمتها مشروعاً لإقامة معرض إسلامي كبير تعرض فيه المنجزات الإسلامية. . . »

هكذا يعلق المستشرق (شمتز) على التقارب الإسلامي ويضيف إلى هذه المنجزات ما لمسه من إرسال مصر وتركيا

مازاد على حاجتهما من مهندسين ومدرسين وأساتذة جامعات وميكانيكيين إلى البلدان الإسلامية حيث استغنت تلك الدول بذلك عن الخبراء الأوروبيين المتعاونين معها ويقول المستشرق (ص ١٧٤) : «انصرف الطلاب المسلمون عن جامعات أوروبا واتجهوا إلى إتمام دراستهم في دول إسلامية. إن خريجي الجامعات الشرقية (يقصد الإسلامية) يتقدمون اليوم موكب الطلائع التي تمهد الطريق أمام الوحدة الإسلامية.. فهم يسهمون في بناء الحضارة والتطور الاقتصادي في أوطانهم ويؤدون الأعمال التي كانت وقفاً على الأوروبيين. وفي المجال العسكري تقدم الدول ذات الخبرة في الشؤون الحربية - وعلى الأخص تركيا - ضباطا أعدوا إعداداً فنياً للدول المجاورة المتخلفة في هذه النواحي للمساهمة في بناء جيوشها الحديثة...»

وبهذه الروح الإسلامية الخالصة تم الاتفاق بين استنبول وكابول لتوحيد مناهج كليات الطب فيهما كما تم الاتفاق بين بغداد والقاهرة على توحيد مناهج التعليم وتبادل المدرسين وتم الاتفاق كذلك بين الرياض والقاهرة على تنفيذ إنشاء الطرقات (جدة مكة المدينة).

وتوسع التعاون إلى القطاع المالي والميرفي فتم إعداد مشروع بيوت المال الإسلامية تجسد في مصرف (داشي بنكازي) التركي الذي فتح فروعه في العراق وإيران كما أن بنك مصر ساهم في إنشاء بنك سوري وفتح له فروعاً في السودان والسعودية.

وبأعمال مشرفة كهذه أصبح رأس المال الإسلامي يزاحم رأس المال الأوروبي الدخيل ويأخذ مواقعه ويتخلص من تبعاته التي هي دائماً الاستدانة والاستلاب والإذلال والتذييل. بل أصبح الحديث عن الاكتفاء الذاتي - في الصناعة والغذاء - متاحاً في المحافل السياسية الإسلامية.

وهنا يعلق (باول شمتز) في صفحة ١٧٦: «فالعالم الإسلامي الذي وقف حتى وقت قريب موقفاً سلبياً من أحداث العالم يستيقظ اليوم وينشط اقتصادياً... ولا يتسطيع المرء أن يدرك هذا التغيير ولا يمكن أن يستبين له حجم هذا التقدم إلا إذا نظر إلى الوراء قليلاً جداً فعرف أنه قبل ربع قرن كان موظف البريد في تركيا أجنبياً وكان رأس المال الأوروبي مسيطراً على مجال الاقتصاد في جميع الأقطار الإسلامية تركع أمامه الهامات في خضوع واستسلام وتقدم له الامتيازات فيلتهمُهَا في هدوء آمناً من كل عوامل التنغيص حتى من النظراتَ التي ليس لها سوى البريق الذي لا يؤلم...».

ويتحدث المستشرق عن الحركة الثقافية والإعلامية الإسلامية التي شاعت بين الدول المسلمة قائلاً إنَّها كالروح تشد الشعوب إلى الأمل في قيام وحدة إسلامية مما يجعل القارىء المسلم يؤمن بالمصير المشترك بينه وبين أخيه المسلم مهما تباعدت أقطارهم وتباينت ألسنتهم، من ذلك أن إذاعة أنقرة كانت تبث ساعات عديدة يومياً باللغة العربية.

القوة الثانية في العالم الإسلامي

كم هي أساسية نظرة القوى الغربية لمصادر القوة الإسلامية وأسبابها ما بين الحربين الكونيتين. هي نظرة ذات معان لأنها أعطت للدول الأوروبية وللولايات المتحدة وصفة جاهزة لمحاولة القضاء على تلك المصادر. وإني أعتبر كتاب (باول شمتز) الصادر في عام ١٩٣٩م في طليعة الكتب التي حللت أسباب قوة المسلمين ودعت الغرب إلى الحذر منها ومعالجة الوضع بتخطيط إستراتيجي لضمان تفوق الإمبراطوريات المسيحية على الإسلام.

يخصص (باول شمتز) فصلاً بعنوان: (أسس القوة النامية في العالم الإسلامي) يستعرض فيه اتصال المشرق الإسلامي في الثلاثينات بمسالك التجارة العالمية ودخوله في شبكة المواصلات من طرقات وسكك حديدية ومعابر بحرية عبر المضيقات وهو ما يحبط مخططات الإمبراطوريات الأوروبية التي استغلت ثروات الشرق ومعادنه وإنتاجه الزراعي مابه شغّلت صناعاتها بالإضافة إلى اتخاذ الشرق سوقاً لاستهلاك بضاعتها.

وهنا لابُدّ أن نعقد مقارنة بين امتلاك الشرق الإسلامي في الثلاثينات لوسائل الاتصال والنقل وبين إمكانية امتلاكه اليوم وسائل الاتصال الحديثة وتقنياتها من شبكات فضائية وخطوط هاتفية سريعة وبرامج حاسوبية متطورة. فإن هذه الاتصالات

الحديثة هي التي تضمن للعالم الإسلامي اصطياد المعلومات وجمع الإحصائيات وتخزين المعارف والدخول عن جدارة في منظومة عالمية موجودة بالفعل لا تسمح بالتطور إلا للأقوى معلوماتياً ومعارفياً. ومن هنا جاءت أهمية عرض كتاب (باول شمتز) في سياق ما نأمله من رسم معالم مشروع حضاري إسلامي متكامل. لأن مصادر القوة الإسلامية التي كادت تتيح المناعة وأسبابها للأمة منذ نصف قرن هي نفسها مع تحوير في الجزئيات التي يمكن أن تفتح في وجوهنا زبواب المصير الأفضل.

ويلح الكاتب عام ١٩٣٩ على أن هناك عنصرين آخرين يؤثران تأثيراً كبيراً في جعل الإسلام قوة الغد العالمية وهما:

الزيادة المطردة في سكانه وثروة المواد الخام الموجودة في باطن أرضه. ويستنفر المؤلف الرأى العام الأوروبي والأمريكي ضد المدّ البشري قائلاً: «تشير ظاهرة النمو السكاني في أقطار الشرق الإسلامي إلى احتمال وقوع هزة في ميزان القوى بين الشرق والغرب، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية تفوق نسبتها مالدى الشعوب الأوروبية وسوف تمكن الزيادة في الإنتاج البشري الشرق الإسلامي من نقل السلطة في مدة لا تتجاوز بضعة عقود وسوف ينجح في ذلك نجاحاً لا نرى من أبعاده اليوم إلا النزر اليسير. فمصر وحدها لديها أعلى نسبة مواليد بين كل شعوب العالم الإسلامي. . . بينما يعكف الباحثون في أوروبا على دراسة

الظواهر التي تشير إلى الانخفاض المستمر في عدد السكان ويحاولون تبديد التشاؤم الذي سببته نتائج دراسة إحصائيات تعداد السكان في الغرب . . . »

ويخطىء المستشرق في تقدير أرقام المستقبل حيث يحسب لمصر عام ٢٠٣٧ (أى بعد مائة عام من عام ١٩٣٧ وقد شرع في تحرير كتابه) يحسب سكان مصر إذن عام ٢٠٣٧ بعدد ٤٩ مليون نسمة بينما أكد الواقع أن تزايد السكان في مصر وفي غير مصر من البلدان المسلمة تجاوز هذه التوقعات . ويقول المؤلف أن تركيا تضاهي في مساحتها كلاً من فرنسا وإيطاليا مجتمعتين وأن سكانها سيكونون عام ٢٠٣٧ نحو سبعين مليوناً . والذي يعنينا في هذا ليس بالطبع صحة التوقعات الحسابية بل انشغال الرأى العام الغربي المثقف بهذا الاختلال في التوازن وهو ما يفسر لنا أسباب «الوصفة» أو على رأى إخواننا المصريين نقلاً عن اللغة الإيطالية «الروشتة» التي وضعها عالم الاقتصاد البريطاني توماس مالتوس في القرن الثامن عشر للشعوب النامية بتحديد النسل في كتابه (رسالة في مبادىء السكان) الصادر عام ١٧٩٨ نفس العام الذي حلت فيه جيوش الإمبراطور بونابرت في مصر حيث قتلت في نوفمبر ١٧٩٨ على إثر ثورة مدينة القاهرة اثنى عشر عالماً من علماء الأزهر الشريف مساهمة من «الحضارة» الأوروبية في تحديد نسل مصر من علمائها وهي عملية إرهابية رهيبة استهدفت تحويل الأزهر الشريف إلى زريبة خيول لنابليون! وأصبح العلمانيون العرب يؤرخون بها بداية

«عصر التنوير»!!

والطريف أن (باول شمتز) يستعرض عدد سكان فلسطين عام ١٩٣٧ معتمداً على الإحصاء العام الذي وقع في يوم ٣١ مارس ١٩٣٧ تحت الوصاية البريطانية ونتج عنه أن سكان فلسطين يبلغ عددهم مليوناً وحداً ٣١٦ألفاً ويقول المؤلف: «ولا ترجع أسباب الزيادة إلى الخصوبة الطبيعية لدى سكان فلسطين بل تعود أيضاً إلى هجرة اليهود إلى فلسطين ويؤكد (شمتز) أن عدد السكان اليهود في فلسطين في مارس ١٩٣٧ هو ثلث مجموع السكان والثلثان كانوا عرباً ذاكراً أن الخصوبة البشرية لدى العرب أكبر من الخصوبة لدى اليهود بمرتين ونصف. ويفهم المرء من هذه الأرقام سر تمسك اليهود بجعل باب الهجرة إلى فلسطين مفتوحاً لليهود ويدرك نشاط الصهيونية المحموم لحمل اليهود على النزوح إلى فلسطين. ويعقب (باول شمتز) على ذلك قائلاً: (لاتنسوا أن هذا الكلام عام ١٩٣٧ قبل تأسيس دولة إسرائيل بعشر سنوات):

يقول (شمتز) ص ١٧٦: «فلو توقفت الهجرة لأصبحت الخصوبة البشرية بين السكان العرب عقبة كأداء في طريق آمال الصهيونية لأنها تستطيع التغلب على وضع اليهود من الناحية العددية في فترة وجيزة نسبياً...»

والخلاصة التي يصل إليها المؤلف منذ ستين عاماً هي أن النمو السكاني إلى جانب وجود الخامات والنفط هما من أكبر أسباب تحوّل القيادة العالمية إلى الإسلام ويقول كذلك: إن

تفوّق أوروبا في التكنولوجيا على العالم الإسلامي ينقص عاماً بعد عام لأن الشعوب الإسلامية اتجهت إلى تطوير نفسها وبناء حضارتها الحديثة بالوسائل الهندسية الأوروبية وتكرس جهودها اليوم لزيادة إنتاجها . . . فكثرة السكان لها آثارها البعيدة لأنها وإن كانت لا ترى أبعادها بالعين المجردة في الوقت الحاضر فإنها ستحدد بطريقة حاسمة المستقبل السياسي للعالم الإسلامي وستكون من أهم العوامل التي يرتكز عليها أمنه وسلامته .

غريب أن ينظر لنا الغربيون هذه النظرة وان يقيّمونا بهذا المعيار في حين مايزال جرح سقوط الدولة العثمانية طازجاً ودامياً وفي حين ماتزال الهجمة الأوروبية الاستخرابية في عزّها وجل شعوب المسلمين ترزح تحت نير الاحتلال العسكري والسياسي والإداري والثقافي! غريب أن تكون لنا منذ ستين عاماً كلّ تلك المؤهلات للقوة والمناعة والانتصار وأن يقع إجهاض ذلك المشروع الحضاري حتى يقع تأجيله بإرادة من الله تبارك وتعالى إلى هذا الجيل الذي نشأ مع نهاية القرن العشرين وطلائع القرن القادم .

﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)** ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] .

روسيا والعالم الإسلامي

من عجائب التاريخ الحديث ما نقرأه من علاقات انعقدت بين الشيوعية المنتصرة في موسكو عام ١٩١٧ وبين العالم الإسلامي الناهض المتوثب في مطلع هذا القرن وأواسطه ومن أهم الكتب التي استعرضت تلك العلقات هذا الكتاب الذي نحن ما زلنا في الحديث عنه **(الإسلام قوة الغد العالمية)** للمستشرق الألماني (باول شمتز).

ومن دون أن ندخل في الجزئيات التي هي من نصيب المتخصصين يمكن استنتاج حقيقة ساطعة هي أنه عندما نجحت الثورة البلشفية الروسية واستوى زعماؤها على عرش الاتحاد السوفييتي كانوا واعين بأن الأمة الإسلامية تمثل قوة شبه موحدة يربط بين شعوبها في ذلك العهد رباط الجهاد من أجل التحرر من الاستعمار - البريطاني والفرنسي - وإن الذي يرجع إلى وثائق الدولة الشيوعية الوليدة بموسكو يكتشف أن الخلفية التي كانت تحرك الدبلوماسية السوفيتية تعتمد على اعتبار المسلمين أمة واحدة وأن الاتحاد السوفيتي متصل بها أشد الاتصال لسببين كبيرين:

السبب الأول: وجود شعوب مسلمة في هذا الاتحاد السوفيتي الجديد.

السبب الثاني: إثبات قوة هذه الدولة بإزاء الإمبراطوريتين البريطانيّة وافرنسية بدعم حركة الشعوب المسلمة نحو

الاستقلال. وكانت هذه الدبلوماسية في الحقيقة متجاوبة مع ما جاء في وثيقة ميلاد الاتحاد السوفييتي (أكتوبر ١٩١٧) من ضرورة مكافحة الاستعمار ومساعدة الشعوب الضعيفة المولّى عليها حتى «تلتحق بركب الاشتراكية ودولة البروليتاريا العمالية...»

ففي يناير ١٩١٨ كونت موسكو (لجنة مركزية إسلامية) حصرت دورها في بادىء الأمر في العناية بشؤون المسلمين داخل الحدود ثم سمح لها بتوسيع نشاطها إلى أرمينيا ودعت هذه اللجنة إلى عقد مؤتمر في ديمسبر ١٩١٨ وكان الهدف الأساسي من وراء هذا المؤتمر أن تستقطب الحركة الشيوعية خلايا العمل الإسلامي التحريرية وتكونت (رابطة تحرير الشرق) وأصدرت هذه الرابطة ميثاقها فأبدت إعجابها الكبير بفكرة الوحدة الإسلامية التي انتكست أثناء الحرب انتكاساً مريراً بعد القضاء على الدولة العثمانية.

وتقول الوثيقة: «كانت الوحدة الإسلامية في جوهرها حركة دينية وطنية فالإسلام دين سياسي كان له دور لا يستهان به في توجيه أجهزة الدولة. فقد كانت حياة المسلمين الدينية إيجابية في المجتمع تخللها الفكر المناضل السياسي ولهذا تستطيع الوحدة الإسلامية أن تقوم بنشاطها مرة أخرى كحركة دينية استعادت هيبتها وتقف للنضال ضد الاستعمار الغربي لتعقد تحالفاً بناءً مع روسيا الجديدة في نفس الميدان...»

وقطعت الدولة الاشتراكية الكبرى خطوة أخرى تمثلت في

الدعوة لعقد مؤتمر (باكو) للشعوب الإسلامية ولبى الدعوة ١٨٠٠ عضواً وبدأت لندن تستشعر خطورة التحرك السوفييتي باتجاه إيقاظ المارد الإسلامي من رقدة الحضارة. فكان من سلطات بريطانيا أن سجنت وشردت مندوبي بلدان كثيرة كالهند وإيران والعراق حضروا هذا المؤتمر أو حاولوا الحضور. وظهرت منذ ذلك الحين شعارات تقول إن الإسلام هو الاشتراكية زائد الإيمان والفضائل وأن الإسلام هو الثورة ضد الظلم.

وارتبطت تركيا ارتباطاً وثيقاً بالاتحاد السوفيتي وزار أنور باشا موسكو في صيف ١٩٢٠ وصدر بيان يقول: «حق للعالم الإسلامي أن يرفع رأسه معتمداً على روسيا كي يتخلص من العبودية الإنجليزية كما أن معاهدة سوفيتية إيرانية وقعت في فبراير ١٩٢١ تؤكد: «تقر الدولتان المتعاقدتان بأن النضال الوطني من أجل الحرية يتفق في أهدافه مع نضال الطبقة العاملة في روسيا من أجل النظام الاشتراكي ويعلنان تأكيد حق الشعوب الإسلامية في الحرية والاستقلال. . .»

وتحركت بريطانيا وفرنسا بإزاء شبح هذا التعاون وتعددت الدعاية الغربية ضد موسكو وإلحاد نظامها الشيوعي وحاصر الجيش الإنجليزي تركيا من جانبين - من سيناء ومن العراق، ولم تكن في وضع يمكنها من الصمود أمام الجيش البريطاني لأن أعراض الشيخوخة ظهرت عليها فأُسسها منهارة وبناؤها متهالك وآيل للسقوط هزته الثورة العربية فقطعت ما تبقى من

أوصاله وأحدثت فيه شقوقاً سهلت على بريطانيا المروق منها إلى حيث تريد وتحقق اتفاق معاهدة (سايكس - بيكو) التي وقعت في مارس ١٩١٦ حيث اعترف الطرف الفرنسي بسيادة بريطانيا على المناطق التي طمعت فيها لندن وحددت المعاهدة النصيب الفرنسي في الشام ومضت كل من القوتين - الصديقتين المتنافستين - تتباريان في تكريس حضورهما العسكري والإداري والاقتصادي والثقافي والتنصيري حتى توّجت هذه العملية الاستخرابية التشويهية عام ١٩١٧ بوعد بلفور وهو العنصر العدواني المفاجيء الذي استنجدت به القوتان لمزيد إحباط المشروع الحضاري الإسلامي في المشرق وإرباك المسلمين. ويقول لنا (باول شمتز) إن الاستنجاد (الاستخرابي) بالقومية الصهيونية جاء كردّ فعل ضد الثورات الإسلامية المشتعلة تحت أقدام الوجود البريطاني وبنسبة أقل الفرنسي في الشرق ويبلغ المستشرق (شمتز) إلى حد القول حرفياً ص ٢٥٨: «كان وعد بلفور استدعاءً للحليف الصهيوني لحجز شدة الضغط الإسلامي عن القوات الإنجليزية...»

هذا ما أكده مستشرق مسيحي عام ١٩٣٩ وهو تفسير موضوعي لما حدث بعد ذلك التاريخ من فواجع ومذابح وإرهاب يهودي ضد مسلمي فلسطين وهذا الرأى ينير جوانب خفية مظلمة من تاريخ التحالف المسيحي اليهودي ضد دار الإسلام بواسطة ما سماه (باول شمتز) منذ ستين عاماً «اقتطاع جزء من المنطقة العربية بالقوة...» ص ٢٥٩. مضيفاً في نفس

الصفحة قائلاً:

«ذلك أن السياسة الإنجليزية مهدت الطريق بإعلان بلفور لاستيطان ما يقرب من نصف مليون فرد من جنسيات أجنبية في منطقة يجب أن تبقى فيها - حسب رأى لندن - مصالح بريطانيا الاستراتيجية وتمارس غزواً استخرابياً في المناطق العربية بأية صيغة من الصيغ تحقق الهدف المرجو دون أن تحيد قيد أنملة. وهكذا أدت السياسة الإنجليزية في اتجاهها لإنشاء وطن قومي لليهود وظيفتها.. ويعيش اليوم شعب يحاول إثبات وجوده وسط تزاحم القومية الإسلامية ودفاعها عن حقها في الحياة وعن وطنها...»

والعبرة التي يخرج بها مطالع هذا الكتاب القيم هي التحول من التحالف بين «الوطن القومي اليهودي» وبريطانيا إلى تحالف إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ولعل ذلك ما يفسز السعي السريع والمتوهج للدولة العبرية نحو هدفين أساسيين ينقذانها من التذيل لقوة عظمى وهما:

أولاً: اكتساب قوة نووية ضاربة تخيف بها العرب لكي تكون لها السيادة المطلقة.

ثانيا: تحييد كل الشعوب العربية المحيطة بها برفع راية السلام دون الجلاء عن الأراضي المحتلة ودون المفاوضة على القدس ودون حل قضايا مليون لاجىء فلسطيني يضربون في أرض الله الواسعة.

في الختام

اللهم أغفر لي زللاً أو خطأً ارتكبته وأكتب لي أجر من اجتهد في عمل صالح فأصاب في بعض ولم يصب في بعض فإنيّ توكلت على الله وإليه أنبتُ في محاولة صعبة لرسم الخطوط الهادية لمشروع حضاري للإسلام وحسبي أن يوءي هذا الكتابُ أمانة إثارة الإقلام وتحريك الأفكار واستنفار الضمائر. فإن شر الأمم أمة تفقد ذاكرتها وتضيع بوصلتها فتكون إلى بهيمة الأنعام أقرب ولذا نعوذ بالله من شرور التيه الحضاري بين الأمم ومن غفلة التاريخ ومن رقدة العدم. فإنه لم يكتب لنا مشروع حضاري متوهج موفق إلا بإعادة الحلقات المفقودة في سلسلة النهضة الإسلامية الموعودة.

ومن هذه الحلقات تلك التي تصل بين صاحب الأمر وصاحب الرأى وقد صدأت وتآكلت فانفطرت وحلّ سوء تفاهم عميق محل الشورى الرضية التي ارتضاها الله صفة من صفات المسلم وسنها الرسول صلى الله عليه وسلم سنة زكية صلح بها شأن السلف وسيصلح بها أمر الخلف.

وكذلك الحلقة التي تربط بين الوحي والعقل فقد أصابها الوهن فاندثرت حتى كدنا نصبح أمة سوقاً لا تستقيم إلا لترويج بضائع الأمم، وقس عليهما الحلقة التي تمسك الوسائل بالغايات وقد انقطعت مما جعل بعضنا يحيا بمجرد الوسائل ويعتقد أن امتلاكها هو سدرة المنتهى فيهمل الغايات والبعض الآخر يضع الغايات نصب عينيه فتعوزه الوسائل. وكلاهما

شقي لا قرار له. وكذلك الحلقة التي تشد الأمة إلى هويتها بوسائط التربية الأصيلة والثقافة المتجذرة فقد بلت مع الزمن وأصابها أعداء الأمة بالإعلام المشوه وزعزعة الوجدان وطمس اليقين بالشبهات.

إنها حلقات مفقودة وفضائل غائبة ولن تعود الأمة إلى سالف رسالتها التاريخية الكبرى إلا بوصل ما انقطع من هذه الحلقات وحسب مؤلف الكتاب المتواضع أن يحث قراءه عل وضع «الحقائق المسَلم بها» و«الأفكار الجاهزة للاستهلاك» موضع الشك ولنظر حتى يتحرك العقل المسلم لطرح القضايا الجوهرية على بساط الشورى والتحليل والتدبر والروية والمقارنة والاستشعار.

وإن الأمل معقود في جيل الشباب المؤمن الملتزم حتى يجعل من هذا المشروع حقيقة ساطعة وواقعاً معاشاً مع التضرع إلى الله عز وجلّ ألا يدفع الجيل القادم مادفعه جيلنا الراهن من ضريبة غالية لنصرة الحق والاصداع به.

والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل هو نعم المولى ونعم النصير، اللهم استمسكنا بعروتك الوثقى، لا نصر إلا منك ولا ملجأ إلا أنت ولا أمل لنا إلا وجهك الكريم وطريقك المستقيم؛ اللهم اغفر لنا وتب علينا وارحمنا إنك الغفور الرحيم آمين. وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

صدر من هذه السلسلة

١ -	تأملات في سورة الفاتحة	د. حسن باجودة
٢ -	الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه	أ. أحمد محمد جمال
٣ -	الرسول في كتابات المستشرقين	أ. نذير حمدان
٤ -	الإسلام الفاتح	د. حسين مؤنس
٥ -	وسائل مقاومة الغزو الفكري	د. حسان محمد مرزوق
٦ -	السيرة النبوية في القرآن	د. عبد الصبور مرزوق
٧ -	التخطيط للدعوة الإسلامية	د. محمد علي جريشة
٨ -	صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية	د. أحمد السيد دراج
٩ -	التوعية الشاملة في الحج	أ. عبد الله بوقس
١٠-	الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره	د. عباس حسن محمد
١١-	لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢-	السنة في مواجهة الأباطيل	أ. محمد طاهر حكيم
١٣-	مولود على الفطرة	أ. حسين أحمد حسون
١٤-	دور المسجد في الإسلام	أ. محمد علي مختار
١٥-	تاريخ القرآن الكريم	د. محمد سالم محيسن
١٦-	البيئة الإدارية في الجاهلية وصدر الإسلام	أ. محمد محمود فرغلي
١٧-	حقوق المرأة في الإسلام	د. محمد الصادق عفيفي
١٨-	القرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته [١]	أ. أحمد محمد جمال
١٩-	القراءات: أحكامها ومصادرها	د. شعبان محمد اسماعيل
٢٠-	المعاملات في الشريعة الإسلامية	د. عبد الستار السعيد
٢١-	الزكاة: فلسفتها وأحكامها	د. علي محمد العماري
٢٢-	حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	د. أبو اليزيد العجمي
٢٣-	الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	أ. سيد عبد المجيد بكر
٢٤-	الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	د. عدنان محمد وزان
٢٥-	الإسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة
٢٦-	تربية النشء في ظل الإسلام	د. محمد محمود عمارة
٢٧-	مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي	د. محمد شوقي الفنجري
٢٨-	وحي الله	د. حسن ضياء الدين عتر
٢٩-	حقوق الإنسان وواجباته في القرآن	أ. حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠-	المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	أ. محمد عمر القصار

٣١- القرآن كتاب أُحكمت آياته [٢] — أ. أحمد محمد جمال
٣٢- الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج — د. السيد رزق الطويل
٣٣- الاعلام في المجتمع الإسلامي — أ. حامد عبد الواحد
٣٤- الالتزام الديني منهج وسط — الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
٣٥- التربية النفسية في المنهج الإسلامي — د. حسن الشرقاوي
٣٦- الإسلام والعلاقات الدولية — د. محمد الصادق عفيفي
٣٧- العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية — اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨- معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها — د. محمود محمد بابللي
٣٩- النهج الحديث في مختصر علوم الحديث — د. علي محمد نصر
٤٠- من التراث الاقتصادي للمسلمين — د. محمد رفعت العوضي
٤١- المفاهيم الاقتصادية في الإسلام — د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢- الأقليات المسلمة في أفريقيا — أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٣- الأقليات المسلمة في أوروبا — أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٤- الأقليات المسلمة في الأمريكتين — أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٥- الطريق إلى النصر — أ. محمد عبد الله فودة
٤٦- الإسلام دعوة حق — د. السيد رزق الطويل
٤٧- الإسلام والنظر في آيات الله الكونية — د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨- دحض مفتريات — د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩- المجاهدون في فطان — أ. محمد ضياء شهاب
٥٠- معجزة خلق الإنسان — د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية — د. سيد عبد الحميد مرسي
٥٢- ما يختلف فيه الإسلام عن الفكر الغربي والماركسي — أ. أنور الجندي
٥٣- الشورى سلوك والتزام — د. محمود محمد بابللي
٥٤- الصبر في ضوء الكتاب والسنة — أ. أسماء عمر فدعق
٥٥- مدخل إلى تحصين الأمة — د. أحمد محمد الخراط
٥٦- القرآن كتاب أُحكمت آياته [٣] — أ. أحمد محمد جمال
٥٧- كيف تكون خطيباً — الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨- الزواج بغير المسلمين — الشيخ حسن خالد
٥٩- نظرات في قصص القرآن — أ. محمد قطب عبد العال
٦٠- اللسان العربي والإسلام معاً في مواجهة التحديات — د. السيد رزق الطويل
٦١- بين علم آدم والعلم الحديث — أ. محمد شهاب الدين الندوي
٦٢- المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان — د. محمد الصادق عفيفي
٦٣- من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢] — د. رفعت العوضي

٦٤-	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥-	لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦-	أصلح الأديان عقيدة وشريعة	أ. عبد الغفور عطار
٦٧-	العدل والتسامح الإسلامي	أ. أحمد المخزنجي
٦٨-	القرآن كتاب أُحكمت آياته [٤]	أ. أحمد محمد جمال
٦٩-	الحريات والحقوق الإسلامية	أ. محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠-	الإنسان الروح والعقل والنفس	د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١-	موقف الجمهوريين من السنة النبوية	د. شوقي بشير
٧٢-	الإسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣-	تأملات قرآنية	د. عصمة الدين كركر
٧٤-	الماسونية سرطان الأمم	أ. أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥-	المرأة بين الجاهلية والإسلام	أ. سعد صادق محمد
٧٦-	استخلاف آدم عليه السلام	د. علي محمد نصر
٧٧-	نظرات في قصص القرآن [٢]	أ. محمد قطب عبد العال
٧٨-	لماذا وكيف أسلمت [٢]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩-	كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	أ. سراج محمد وزان
٨٠-	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ أبو الحسن الندوي
٨١-	كيف بدأ الخلق	أ. عيسى العرباوي
٨٢-	خطوات على طريق الدعوة	أ. أحمد محمد جمال
٨٣-	المرأة المسلمة بين نظرتين	أ. صالح محمد جمال
٨٤-	المبادىء الاجتماعية في الإسلام	أ. محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٨٥-	التآمر الصهيوني الصليبي على الإسلام	د. ابراهيم حمدان علي
٨٦-	الحقوق المتقابلة	د. عبد الله محمد سعيد
٨٧-	من حديث القرآن على الإنسان	د. علي محمد حسن العماري
٨٨-	نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة	أ. محمد الحسين أبو سم
٨٩-	أسلوب جديد في حرب الإسلام	أ. جمعان عايض الزهراني
٩٠-	القضاء في الإسلام	أ. سليمان محمد العيضي
٩١-	دولة الباطل في فلسطين	الشيخ القاضي محمد سويد
٩٢-	المنظور الإسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل	د. حلمي عبد المنعم جابر
٩٣-	التهجير الصيني في تركستان الشرقية	أ. رحمة الله رحمتي
٩٤-	الفطرة وقيمة العمل في الإسلام	أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
٩٥-	أوصيكم بالشباب خيراً	أ. أحمد محمد جمال
٩٦-	المسلمون في دوائر النسيان	أ. أسماء أبو بكر محمد

٩٧- من خصائص الإعلام الإسلامي	أ. محمد خير رمضان يوسف
٩٨- الحرية الاقتصادية في الإسلام	د. محمود محمد بابللي
٩٩- من جماليات التصوير في القرآن الكريم	أ. محمد قطب عبد العال
١٠٠- مواقف من سيرة الرسول ﷺ	أ. محمد الأمين
١٠١- اللسان العربي بين الانحسار والانتشار	الشيخ محمد حسنين خلاف
١٠٢- أخطاء حول الإسلام	السيد هاشم عقيل عزوز
١٠٣- صلاة الجماعة	د. عبد الله محمد سعيد
١٠٤- المستشرقون والقرآن	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٠٥- مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية	أ. أنور الجندي
١٠٦- الاقتصاد الإسلامي هو البديل	د. شوقي أحمد دنيا
١٠٧- توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ	أ. عبد المجيد أحمد منصور
١٠٨- المخدرات مضارها على الدين والدنيا	د. ياسين الخطيب
١٠٩- في ظلال سيرة الرسول ﷺ	أ. أحمد المخزنجي
١١٠- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	أ. محمود محمد كمال عبد المطلب
١١١- زينة المرأة بين الإباحة والتحريم	د. حياة محمد علي خفاجي
١١٢- التربية الإسلامية كيف ترغبها لأبنائنا	د. سراج محمد عبد العزيز وزان
١١٣- النموذج العصري للجهاد الأفغاني	أ. عبد رب الرسول سياف
١١٤- المسلمون حديث ذو شجون	أ. أحمد محمد جمال
١١٥- الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم	أ. ناصر عبد الله العمار
١١٦- المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات	أ. نور الإسلام بن جعفر علي آل فايز
١١٧- آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم	د. جابر المتولي تميمة
١١٨- اللباس في الإسلام	أ. أحمد بن محمد المهدي
١١٩- أسس النظام المالي في الإسلام	أ. محمد أبو الليث
١٢٠- المستشرقون والقرآن [٢]	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٢١- الإسلام هو الحل	أ. محمد سويد
١٢٢- نظرات في قصص القرآن	أ. محمد قطب عبد العال
١٢٣- من حصاد الفكر الإسلامي	د. محمد محي الدين سالم
١٢٤- خواطر اسلامية	أ. ساري محمد الزهراني
١٢٥- الإسلام ومكافحة المخدرات	أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
١٢٦- دروس تربوية نبوية	أ. صالح أبو عراد الشهري
١٢٧- الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل	د. عبد الحليم عويس
١٢٨- من سمات الأدب الإسلامي	د. مصطفى عبد الواحد
١٢٩- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول]	أ. أحمد محمد جمال

١٣٠- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني]	أ. أحمد محمد جمال
١٣١- المسجد البابري قضية لا تنسى	أ. عبد الباسط عز الدين
١٣٢- التدريس في مدرسة النبوة	د. سراج عبد العزيز الوزان
١٣٣- الإعلام الإسلامي ووسائل الاتصال الحديث	أ. ابراهيم اسماعيل
١٣٤- تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام	د. حسن محمد باجودة
١٣٥- منهاج الداعية	أ. أحمد أبو زيد
١٣٦- في جنوب الصين	الشيخ محمد بن ناصر العبودي
١٣٧- التنمية والبيئة دراسة مقارنة	د. شوقي أحمد دنيا
١٣٨- الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل	د. محمود محمد بابللي
١٣٩- سقوط الأيديولوجيات	أ. أنور الجندي
١٤٠- الطفل في الإسلام	أ. محمود الشرقاوي
١٤١- التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها	أ. فتحي بن عبدالفضيل بن علي
١٤٢- لمحات من الطب الإسلامي	د. حياة محمد علي خفاجي
١٤٣- الإسلام والمسلمون في ألبانيا	د. السيد محمد يونس
١٤٤- أحمد محمد جمال (رحمه الله)	مجموعة من الأساتذة الكُتّاب
١٤٥- الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية	أ. أحمد أبو زيد
١٤٦- الإسلام والنظام العالمي الجديد (الطبعة الثانية)	د. حامد أحمد الرفاعي
١٤٧- من جماليات التصوير في القرآن الكريم	أ. محمد قطب عبد العال
١٤٨- الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي	أ. زيد بن محمد الرماني
١٤٩- الماسونية والمرأة	أ. جمعان بن عايض الزهراني
١٥٠- جوانب من عظمة الإسلام	أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
١٥١- الأسرة المسلمة	د. حسن محمد باجودة
١٥٢- حرب القوقاز الأولى	د. أحمد موسى الشيشاني
١٥٣- المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والسنة النبوية - الجزء الثاني	أ. زيد بن محمد الرماني
١٥٤- المسلمون في جمهورية الشاشان وجهادهم في مقاومة الغزو الروسي	د. السيد محمد يونس
١٥٥- القدس في ضمير العالم الإسلامي	اعداد مجموعة من الباحثين
١٥٦- الطريق إلى الوحدة الإسلامية	اعداد مجموعة من الباحثين
١٥٧- المركز القانوني الدولي لمدينة القدس	د. جعفر عبد السلام
١٥٨- الحوار النافع بين أصحاب الشرائع	د. عبد الرحمن الحوراني
١٥٩- الإنسان والبيئة	أ. علي راضي أبو زريق
١٦٠- الإسلام وأثره في الثقافة العالمية	أ. محمود الشرقاوي

١٦١– الموت .. ماذا أعددنا له ؟ — **أ. عبد الله أحمد خشيم**
١٦٢– زواج المسلمة بغير مسلم وحكمة تحريمه — **د. محمود محمد بابللي**
١٦٣– عطاء الإسلام الحضاري — **أ. أنور الجندي**
١٦٤– إحياء الأراضي الموات في الإسلام — **أ. عاطف أبو زيد سليمان علي**
١٦٥– البوسنة والهرسك .. أرقام وحقائق — **أ. خالد الأصور**
١٦٦– أهمية يوم الجمعة (خطب مختارة) — **أ. محمد بن سليمان الأهدل**
١٦٧– المسلمون في لاوس وكمبوديا — **أ. محمد بن ناصر العبودي**
١٦٨– المشكلات التربوية والدينية عند المسلمين في المجتمع الهولندي — **أ. ابراهيم الدرعاوي**
١٦٩– مفاهيم يجب أن تُصحح — **أ. بغداد سيدي محمد أمين**
١٧٠– السنة النبوية المطهرة — **الشيخ محمد علي الصابوني**

طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة